روايات احلام

فراشة المحبة

السيف والقمر

فراشة المحبة

روايات احلام

السيف والقمر

أن تعمل غريتا لدى الكونت رامون دوغارسيا لهو أروع ما حدث في حياتها...

تعرف أن هذا الكونت المتعجرف تسري في دمه وحشية أسلافه الغزاة وتعرف أنه يفرض قوانينه الخاصة وتقاليده الصارمة على من حوله؛ ولكنه في تعامله معها كان لطيفاً، ساحراً و.. صبوراً... حتى عندما أعطته رأيها الصريح بأسلافه المتوحشين وبتقاليده المتحجرة. فلم يكن الكونت رجلاً تهزه التحديات ما دام يمسك بكل الخيوط في يده، إلى أن انقلب السيف إلى حده الآخر الخطير: حد العواطف، فواجهت غريتا عندئذ رجلاً آخر.. غازياً فاتحاً لا يمنعه شيء من تحقيق ما يريد، ولو على حساب الآخرين!!.

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل. الإمارات مصر ٤
سوريا ٧٥ ل.س. قطر ١٠٠ ر المغرب
الأردن ١ د. البحرين ١٠٠ ف. تونس
الكويت ٥٠٠ ف. السعودية ١٠ ر. عمان ٦٠٠

AL AYAM Bookshops الأيام

روايات أحلام

مجلة قصصية اسبوعية تصدر عن شركة دار الفراشة
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م

العنوان: لبنان - بيروت - طريق المطار - قرب جسر المطار
ستر زعرور - الطابق الثالث
ص. ب: ٨٢٥٤/١١ - بيروت - لبنان
هاتف/ فاكس: ٨٤١٤٠٢ - ١ - ٩٦١

المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

جميع حقوق الطباعة والنشر والاقتباس
والتأليف محفوظة للشركة

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

تنفيذ وطباعة مؤسسة دلتا للطباعة والنشر

- حارة حريك - تلفاكس ٥٥٧٣٣٦/٠١ - خلوي ٢٨٧١٥٨/٠٣

١ - امرأة صادقة

عندما ولدت غريتا تيرنت كانت الأقدار قد منحتها هديتين ثمينتين.. قلباً محباً وصدقاً مطلقاً. وإلى مدى محدد حباً للغات، وطفولة مرحة غير معقدة.. ولكن هناك هبة أخرى، كانت تتنهد وتطلب الحصول عليها: إنها موهبة الصرامة.. لو أنها فقط تستطيع أن تتظاهر!

لم تدرك تلك النقطة الخفية من شخصيتها إلا يوم عيد ميلادها الثامن عشر.. كان من المحتم أن تتوافق المناسبة مع أول تجربة عنيفة التأثير لقدرة الجنس الآخر على تحقيق ما يريد دون جهد.

بعد وقت طويل من هذا، أدركت أنه مجرد إنسان عادي.. لم يكن محصناً ضد البؤس وقسوة الحياة التي تختبر قدرات البشر.

كان زميلاً لوالدها في العمل.. أصغر منه ببضع سنوات، ولذلك كان من الطبيعي أن يتلقى دعوة إلى حفل عيد ميلادها، وتقبلها بدهشة وتسلية ثم نسي أن يذهب.

بينما كان جهاز الستيريو يعزف التسجيلات الجديدة ومجموعة من المراهقين يصرخون ويغزون طاولة الطعام المفتوحة، كانت غريتا تتجول وعلى وجهها تعبيرات حالمة تلهم الشعراء.. ومع أنه تذكر بعد يومين وبسرعة قدم لها علبة شوكولا، لم تغير شيئاً.. إنه مذنب بالخيانة وكل الشوكولا في العالم لن يواسيها.

أخيراً.. انتحى بها والدها جانباً في وقت متأخر من إحدى

www.liilas.com

الأمسيات وانطلق فيما تسميه العائلة «إحدى خطب الوالد الفلسفية» وبعد التركيز على أن تكون منطقية وبضع جمل في أشياء جانبية، لا علاقة لها بالموضوع. قال بلهجة يائسة: حبيبتي.. يجب أن تتعلمي كيف تخفين ما في نفسك عن الناس!

وتابع الضغط على هذا المنوال بشأن قسوة العالم، وأن الطبيعة الصادقة هي أحياناً مصدر إحباط، وهو لا يرغب أن يراها قاسية غير حساسة ولا يريدها أيضاً أن تصاب بأذى. وأن التصريح بالحقيقة أحياناً يقود إلى المزيد من المشاكل في الحياة، عكس التصرف اللبق في الوقت المناسب.

أجل.. كل هذا عاد بها إلى فن النفاق والمداهنة اللطيفة. وهذه ليست موهبة.. بل هي مجرد بداية لمعرفة ماذا تعني الحياة لفتاة ليست بارعة في إخفاء مشاعرها!

وبدأت غريتا تفكر بهذا وتتعلم بألم ما بدا طبيعة ثانية لصديقاتها الإناث.. لكنها كانت لا تزال تعاني قسوة الصراحة التي لا ترحم.. ولا تزال تعترف فوراً إذا ارتكبت خطأ صغيراً في العمل حتى لو كانت النتيجة هبوط الغضب على رأسها ذو الشعر الحريري الأشقر.. كانت لا تزال تبوح بكل الحقيقة الفجة بشأن أي شيء تسأل عنه.. لكنها تعلمت أن تكون متحفظة قليلاً حين يتقاطع مسارها في الحياة مع الجنس الآخر.

إلى أن بلغت سن التاسعة عشرة ووقعت في حب رب عملها الجديد.

كان الخط الفاصل بين السماء والأرض ضبابياً خلال ثلاثة أشهر. أخذها إلى العشاء، علمها الإبحار، وقال لها طوال الوقت أشياء تجعلها تزهر وتتألق جمالاً، وأخيراً أخذها معه إلى روما في رحلة عمل، حيث كان صادقاً معها لأول مرة وكانت هي أكثر صدقاً عما قبل.. قالت له

في لهجة حازمة إنها لا تريد أي نوع من العلاقات مع رجل متزوج، حتى ولو كانت تحبه وزوجته سافلة تماماً.. أخيراً، قالت له في نهاية الرحلة الكارثة، إنها لا تريد أن تعمل معه بعد الآن.. ثم بكت كثيراً بعد ذلك إلى أن عرفت أن الإحباط هو أعظم محطم للقلوب، وبشكل غريب لم تعد تتألم كثيراً بعد أن واجهت الحقيقة.

حين همد ضجيج العائلة ووصلت غريتا إلى نقطة قد تصرخ عندها لو قيلت كلمة أخرى في الموضوع، قال والدها بقلق: كان يجب ألا ترمي استقالتك هكذا.. بل كان بإمكانك طلب نقلك إلى قسم آخر.. ماذا ستفعلين الآن؟

- سأسافر إلى الخارج.

صاح السيد تيرانت: الخارج؟

وتمتمت السيدة تيرانت: الخارج.. لعطلة يا حبيبتي؟

- لا.. بل للعمل.

بعدئذ خيم الصمت الرهيب.. وقبل أن يلتقطوا أنفاسهم، قالت بحزم:

- اسمعوا، لطالما أردت السفر.. إنني أجيد اللغة الفرنسية والإسبانية لدرجة تمكنني من التعامل مع المراسلات الواردة من مؤسسات أميركا الجنوبية ووكالاتها.. فلماذا أضيع كل هذا هدراً؟

سألت الأم بلهفة: لكن أي نوع من العمل؟

- لست أدري بعد. لكنني زرت مكتباً وتحدثت معهم بالأمر، وعندما يجدون ما يناسبني سوف يبلغوني.

ساد صمت آخر وقال السيد تيرانت: هل أنت مصممة على هذا؟

- أجل.. لقد فكرت بالأمر جيداً.. لذا أرجوكم لا تحاولوا إقناعي.. بل حاولوا تفهمي.

قال ببطء: حسناً.. لا يوجد ما يمنعك.. فقد لا تسنح لك الفرصة

حين تكبرين وتستقرين.

وكادت تحتضنه لكنه تابع: أتساءل ما إذا كان ڤيرمونت يستطيع المساعدة.. فلديه اتصالات جيدة بالجانب الأوروبي لشركة ترانس تشيم. وقد يعرف شيئاً بشأن توفر عمل السكرتارية. أظنك تفكرين بباريس؟

نظرت إليه غريتا بثبات وهزت رأسها نفياً.

- لا.. في الواقع كنت أفكر بشمالي أفريقيا أو جزر الكاناري أو حتى... أميركا الجنوبية.

جلست السيدة تيرانت بضعف تردد كلامها المذهل، فسارعت غريتا إلى مقاطعتها: كل هذا يتوقف على الناس والوظيفة نفسها. يجب أن أكون مستعدة للمرونة، فلا فائدة من اختيار مكان محدد ورفض التفكير بأي مكان آخر أو أي عمل آخر. قد أنتظر قروناً حتى أجد ما يناسبني هذا إذا وجدته.

أجرت غريتا عدة مقابلات خلال أسبوع أو أكثر لكنها لم تكن محظوظة وفي كل مرة كانت تواجه إما نقصاً في المؤهلات المطلوبة، أو أن طبيعة العمل ومواصفاته لا تناسبها.. وتدريجياً تنهدت العائلة بارتياح.. الأمر لا يعني أنهم يريدون تقييد حريتها، لكنهم لم يستطيعوا التخلص من حبهم الطبيعي لها ولا الإحساس بمسؤولية الأهل عندما تقرر ابنتهم الصغيرة المحبوبة أن تهجر مسكنها وتنتقل إلى أرض غريبة عبر البحار..

وذات صباح، وصلت مخابرة هاتفية من مكتب التوظيف يسأل عن غريتا ويطلب زيارتها لهم بعد الظهر.

في هذا النهار كان الغداء صامتاً على غير العادة.. فقد كان هناك قناعة صامتة أن هذا الأمر سيحدث، لكن غريتا ابتسمت وأكدت أنها قد تكون إنذاراً خاطئاً آخر.

وبالرغم من هذا ارتدت ملابسها بعناية واعتنت بزينتها وهندامها.. وانسدل شعرها الذهبي المصقول لامعاً حتى يافة بذلتها المشمشية.. كانت تغلق السترة أربعة أزرار لؤلؤية، وتتناسب مع الحذاء الذي يلف قدميها.

كانت الغرفة في مكتب التوظيف مضاءة.. لكن دخول غريتا إليها زادها إشراقاً مما جعل المرأة المتجعدة الوجه وراء المكتب تتفرس بها عن كثب وتبتسم بدفء مفاجيء..

جلست على كرسي حيث أشارت المرأة، ووضعت يديها في حجرها حتى لا تفضح توترها الداخلي، بينما المرأة تضع ورقة على الطاولة وترفع رأسها: والآن، يا آنسة تيرانت، هذا المركز.. فرصة مثيرة للفتاة المناسبة.. مع أنه ليس بالضبط عمل سكرتارية.. ما هو رأيك في العمل مع الأطفال؟

نسيت غريتا توترها: الأطفال؟ هل هو عمل مزدوج؟

- أبداً.. هناك صبي في السادسة، والمطلوب معرفة الإنجليزية وشيء من الفرنسية.. كما أن هناك فتاة في السابعة عشرة، ستكونين مرافقة لها.. المرتب سخي وأنا واثقة أنك ستتلقين كل تقدير.. إنها عائلة رائعة ذات سمعة ممتازة.. أسلاف الدون تعود أصولهم إلى أيام الفتوحات.

ابتسمت المرأة مطمئنة: ولن نرسلك إلى مكان بعيد إلا إذا كنا واثقين من سلامتك.. فلنا سمعتنا التي نحافظ عليها.. وعليك كذلك أن تكوني مستعدة لتقديم كتب اعتماد تؤكد أنك مناسبة.

- آه.. أعرف هذا.. لكن.. قلت «إلى مكان بعيد»؟

- آه.. أجل! نسيت أن أذكر لك أنها عائلة إسبانية.. أنا آسفة! ستقيمين معهم في منزلهم في «ليما» «البيرو».

صمتت المرأة قليلاً، واضح أنها تنتظر بعض دلائل الانسحاب..

لكن غريتا لم تبد شيئاً ما عدا لمعان مفاجىء في عينيها اللوزيتين، فتابعت المرأة: كذلك يجب أن تكوني واثقة جداً من استعدادك لتحمل الإقامة هناك.. فقد تتعرضين إلى أمراض حقيقية.. ولمدة سنة على الأقل، وأن تكوني مستعدة للسفر مع من ستكونين وصية عليهما إذا لزم الأمر، وإلا ستخسرين أجرة سفرك، وهو مبلغ ضخم. لذا إذا كان لديك أدنى شك أخبريني قبل أن نستمر أكثر.

التقت عينا غريتا بعيني المرأة: ليس لدي مشكلة.. هل سأحصل على معلومات إضافية حين أقابل رب العمل المقترح؟

أحنت المرأة رأسها: لم يكن هناك داعٍ لإرسالك إليه قبل أن ننهي الخطوات الأولية.. أما الآن..

مدت يدها إلى الهاتف تستشير دفتراً أمامها. فأدارت غريتا رأسها بلباقة تتظاهر باهتمام بلوحة زهور بينما المرأة تتحدث في الهاتف، ثم قالت بعد أن أغلقت السماعة: والآن.. عليك أن تذهبي يا آنسة تيرانت قبل الرابعة والنصف، وخذي معك هذه البطاقة..

صمتت لتكتب شيئاً على بطاقة المكتب، ثم: سنيورا جورادو ستتكلم معك وتقدم توصيتها بناء على اللقاء.

ـ ألن أقابل الشخص الذي سأعمل لديه؟

ابتسمت المرأة: يا إلهي.. لا.. ليما تبعد أكثر من ستة آلاف ميل عبر المحيط.. والسنيورا جورادو تمثل العائلة. والآن لا تكوني متوترة! ستجدينها فاتنة جداً ومتفهمة.

وقفت: من الأفضل أن تسرعي.. حظاً سعيداً!

عندما خرجت غريتا من المبنى لوحت لسيارة أجرة كانت قد توقفت لتنزل الراكب ثم ركضت نحوها.

وجدت أن الإثارة تسرع دقات قلبها وتجعل معدتها ترفرف وهي تدفع أجرة الناكسي وتقف لحظة خارج الفندق. شكراً للسماء لأنها

اعتنت بمظهرها.. أخذت نفساً عميقاً، وتقدمت إلى بهو فندق «لندن لوكسور» الدافىء الهادىء.

وفي الردهة النصف دائرية لمكتب الاستعلامات لم يتحرك شيء في قناع الموظف الذي رد عليها: سنيورا جورادو؟ الطابق الأول.. ثم تسعة عشر إلى اليسار يا سيدتي.

بدا لها أن هناك نصف ميل من السجاد الأزرق عليها أن تسير فوقه.. وقررت صعود السلم.. الغرفة تسعة عشر، مثل عمرها.. سارت ببطء إلى أن وقفت خارج الباب الأبيض المذهب.

لم يكن هناك رد فوري على قرعها للباب.. ثم انفتح لتظهر فتاة سوداء الشعر بمعطف أحمر وهي تبتسم: واحدة أخرى؟ تعالي وانضمي إلينا.

لم تتوقع غريتا أن ترى مرشحات أخريات.. نظرية سخيفة.. فلماذا تكون هي المتقدمة الوحيدة لها؟

كان هناك أربعة منهن: إحداهن مسنة شاحبة الوجه مشدودة الفم مما يوحي بتوترها الداخلي.. وفتاة مكتنزة مرحة تبدو في سن غريتا، ومراهقة، والفتاة ذات المعطف الأحمر التي فتحت لها الباب. الفتاة المراهقة بدت في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة.. التقطت نظرة غريتا وكشرت، ثم مدت يدها تدفع إلى الوراء شعرها الكثيف.

انفتح الباب الداخلي، وسأل صوت غريب جهوري: آنسة سوزي نوريز...؟

قفزت المراهقة بخفة ومرح.

بعد ثلاث أو أربع دقائق عادت إلى الظهور لكن ليس بذات الخفة أو المرح.. تعطي إشارة الإبهام إلى الأسفل وهي تفتح الباب الخارجي.

لكن المرأة المسنة بقيت وقتاً أطول، وأمضت الفتاة المكتنزة حوالى

عشر دقائق، ثم استدعيت الفتاة ذات المعطف الأحمر وبقيت غريتا وحدها.

اغتنمت الفرصة لتتأكد من أن مظهرها لا زال ممتازاً. لم تكن غريتا مزهوة بنفسها يوماً ما، بل العكس فهي لم تعرف أبداً مدى جمال الصورة التي ترسمها في عيون بقية الناس.. لكن إحساساً طبيعياً كان يجعلها تكره اللامبالاة والمظهر الفوضوي.

كانت تعيد مرآتها إلى حقيبتها حين خرجت الفتاة ذات الشعر الأسود وهمست: لا تتصلي بنا.. سنتصل بك.. على أي حال أعتقد أنني فقدت تلك الرحلة.

مرة أخرى أصبحت غريتا وحدها.. مرت دقيقة.. ثم أخرى.. وثالثة.. ولم يكن هناك صوت في الغرفة الداخلية.. وقفت مقطبة. لا يمكن أن ينسوها.. سمعت صوت قعقعة عربة شاي تمر بالباب الخارجي وأصوات مكتومة خارجاً.. ثم صمت مجدداً.. فجأة تحركت إلى الأمام ودقت الباب الداخلي.

لا أحد يرد.. عضت شفتها، ثم دقت مرة أخرى وفتحت الباب قليلاً.. ونظرت إلى الداخل وعلى شفتيها كلمة اعتذار.. وفي عينيها حيرة.. كانت غرفة الجلوس الواسعة في الجناح خالية.

انسحبت مقطبة لتغلق الباب بهدوء، وعادت إلى كرسيها قرب الباب الخارجي.. تتساءل ماذا تفعل؟ هل يستحق ذلك هذا الانتظار؟ انتابها الإحساس بخيبة الأمل، ونظرت إلى الباب المغلق.. ربما استدعيت السنيورا جورادو خارجاً لبضع دقائق.. ستنتظر خمس دقائق أخرى، ثم ستقرع الباب ثانية.. ربما تكون السنيورا جورادو قد عادت وإلا فسوف تنسحب على أي حال.

انحنت غريتا تسترد قفازها الذي سقط من يدها إلى الأرض.. ووقع القفاز مجدداً، وعندما استقامت غريتا دائخة، رأت النجوم تلمع

أمامها.. ثم واجهت مباشرة نظرة سوداء مجفلة بقدر إجفالها وأكثر.

ـ سانتو.. أرجو عفوك!

عاد الباب الذي أصاب لتوه رأس غريتا إلى مكانه، ووقف رجل طويل في بذلة رمادية يعلوها: هل أصبت بأذى؟ لم يكن لدي فكرة..

هزت رأسها: لا بأس.. لقد أخطأت بالجلوس قرب الباب.

ارتجف حاجباه: آه.. لا.. أبداً.. هل أنت واثقة أنك بخير؟

ـ واثقة تماماً.

وهذه حقيقة.. فضربة على الرأس تخسر المنافسة أمام شخصية قوية رجولية كهذه! بصعوبة، وباهتمام مؤدب تخلصت غريتا من سحره.. وقالت: متأكدة جداً يا سنيور.

لمع حذر ما في قسمات الوجه الأسمر، ثم أحنى رأسه بأدب واستدار إلى الباب الداخلي.. فاسترخت غريتا.. ثم توقف الغريب والتفت.

ـ كنت ترغبين في رؤيتي يا سنيوريتا؟

ابتسمت: لا يا سنيور.. لكن، أرجوك.. لدي موعد مع سنيورا جورادو.. وأتساءل ما إذا كنت..

وتغيرت تعبيرات وجهها للحيرة التي ارتسمت على وجهه.

ـ لكنني ظننت أن كلهن قد.. منذ متى وأنت في الانتظار؟

ـ ثلاثة أرباع الساعة تقريباً.

ـ وتيريستا ليست هنا..؟

أفلتت منه كلمة لم تفشل في ترجمتها، وأخفت ابتسامة، يبدو أن تيريستا هنا سيد جبار هذا إذا كانت زوجته.. لكنه كان يحرك يداً قوية جميلة الشكل، فمرت من الباب إلى حيث أشار.

لم تعد الغرفة الداخلية تبدو متسعة بعد أن احتلها الجسد الطويل بالبذلة الرمادية. وأشار إلى مقعد ثم دخل غرفة أخرى.. ثم عاد بعد

لحظات وعلى وجهه الأرستقراطي الوسيم شيء من الانزعاج.

قال: أنا آسف.. فالسنيورا جورادو ليست هنا.. أرجوك اقبلي اعتذاري للإزعاج الذي تعرضت له.

وقفت غريتا.. لم تستطع إظهار مدى انزعاجها على ضياع وقتها لكنها لم تخف رنة خيبة الأمل وهي ترد بسرعة: أرجوك لا تقلق.. هذه ليست غلطتك.. وشكراً على.. على السؤال لأجلي.. كان يمكن أن أنتظر دون جدوى لو لم تظهر.

ومدت له يدها لكنها تركتها تهبط مجدداً، فلم ينتبه لحركتها.

قال: لحظة واحدة.. هل أنا على حق لو قلت إنك هنا بشأن مقابلة؟.. كل شيء مكتوب هنا..

وأشار إلى أوراق كان يتفحصها على طاولة مليئة بالزهور..

هزت رأسها تراقبه يزيح وعاء الزهور بنفاد صبر، ثم رفع رأسه: كان هناك أربع شابات هنا.. وكلهن حصلن على إشارة غير مناسبة.. دعيني أرى..

أخذ يقرأ الأسماء والتعليقات ثم رفع نظره إليها: هل اسمك بينها يا سنيوريتا؟

ـ لا.. فاسمي تيرانت.. غريتا تيرانت.

تفحص اللائحة مجدداً.. وهز رأسه: اسمك لا يظهر هنا يا آنسة تيرانت.

أحست بإحباط: لكن يجب أن يكون مسجلاً.. فلدي موعد دون أدنى شك..

صمتت ثم تنهدت بارتياح وقد تذكرت البطاقة، وبسرعة فتشت حقيبتها.

ـ لدي بطاقة من مكتب التوظيف.. ها هي.

أخذها ثم قطب، ونظر مجدداً إلى دفتر المواعيد، حينئذٍ انزاح

العبوس عنه.

ـ أعتقد أنه حدث ما يمكن أن نعتبره سوء تفاهم. وأخشى أن تكون تيريستا قد خلطت بين اسم تيرانت وتارليت.

نظر إليها بتمعن للحظات، ثم قال: إذن يبدو أن لا شيء يمكن فعله الآن سوى أن أجري معك المقابلة بنفسي.. وأطرح عليك كل هذه الأسئلة الشخصية المتطرفة.

عضت شفتها: آه.. لكن.. هل سيكون هذا صائباً؟ أعني..

فجأة بدا لها أطول قامة، والنور في عينيه النفاذتين مخيفاً أكثر.

ـ بالطبع سيكون صائباً.. لا تخافي يا سنيوريتا! أنا أعرف عائلة رامون غارسيا أكثر من سنيورا جورادو. المسألة أنه من الأفضل أن نحصل على رأي امرأة.

أشار إليها لتجلس وجلس إلى الجهة الأخرى من الطاولة.. مرة أخرى أصبحت تلك الباقة الكبيرة من الأزهار عائقاً بينهما. فوقفت غريتا باندفاع تنقل وعاء الزهور إلى طاولة أخرى.. بقي صامتاً حتى جلست، ثم قال بسخرية: شكراً لك.. تبدين مفيدة جداً يا آنسة تيرانت.

على الفور تحول احمرار خديها إلى لون زهري وأحست بالغباء، وطغى عليها إحساس أنها صغيرة. والأسوأ من هذا أن نظرته السوداء أشعرتها بأنوثتها بشكل لم تفعله بها نظرة أي رجل من قبل.. وتصلبت لتخفي حرجها.. ثم ابتسم، وعلى الفور تلاشى ارتباكها وارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة فيها خجل.. وقال بالإسبانية: هل سبق لك العمل مع الأطفال يا سنيوريتا تيرانت؟

ردت بنفس لغته: لا.. وهذا شيء يجب أن أوضحه. أنا لست مؤهلة لتعليم الأولاد، إذا كان هذا هو ما تطلبون.. برغم أن لدي مستوى مرتفع من التعليم إلا أنني لا أريد أن أضللك في هذا المجال.

www.rewity.com

هز رأسه: لا يا آنسة تيرانت.. كارلوس لديه معلم خاص ممتاز في اختصاصه، فيما عدا أنه لا يجيد الإنجليزية والفرنسية.. وتعليم كارلوتا يرتكز أساساً على تحسين إنكليزيتها، وتوفير رفقة غير متوترة لها في الوقت الحاضر.

سألت غريتا بدهشة وهي تفكر بالأمر من وجهة نظر إنكليزية بحتة:

ـ أليس لها أصدقاء من مثل سنها!

بدا لها من الغريب استيراد فتاة من انكلترا.. هل ليما خاوية من فتيات مناسبات؟

وكأنه قرأ أفكارها فأشار بيده: ليس الأمر بسيطاً هكذا، فلم يتح الوقت بعد لكارلوتا كي تقيم صداقات جديدة مناسبة.. منذ ستة أسابيع، عانت هي وشقيقها كارلوس خسارة كبيرة.. لقد فُقد والداهما في تلك الكارثة الجوية في التشيلي.. وربما قرأت عنها؟ ولم يكن هناك ناجين.

ـ آه.. هذا فظيع..! أنا آسفة.

رفع رأسه قليلاً: وقد أصرت جدتهما حينذاك على أن يأتيا إلى ليما، وسيبقيان هناك حتى تتزوج كارلوتا ويكمل كارلوس تعليمه.

صمت قليلاً وبدت الجدية على ملامح وجهه، وتحدث فجأة بالإنجليزية: أتساءل كم تعرفين عن الأعراف والتقاليد التي تحكم تربية فتاة مثل كارلوتا.

ـ سمعت القليل عن طريقة الحياة الإسبانية المحافظة.. وأعرف أن كارلوتا لن يكون لها حرية كبيرة، بل إن حياتها وصداقاتها ستكون مدبرة وستقبلها كما هي دون سؤال.. وأعرف كذلك أن زواجها سيكون مدبراً لها، بغض النظر عما إذا كان للحب دخل فيه أم لا.. وعليها الطاعة كما كانت دائماً.

أنهت حديثها بهدوء دون أن يفارق نظرها القسمات المشدودة

العنيدة لهذا الرجل.

قال ببرود: أنت تفهمين الكثير.. ألا توافقين على طريقة حياة الإسبان «المحافظة»؟

ـ بما أنك سألت سنيور، فأنا لا أوافق.. فنحن الآن في القرن العشرين ولم نعد في العصور الوسطى.. قد يصدمك رأيي بهذا الشأن لكن هذا يرجع لحريتي يا سنيور.

كانت تتكلم بنبرة تحد بالرغم من الجو السلطوي الذي يلوح حوله.. ولم تندم على ما نطقت به، ولو كلفها هذا عملها.. ثم رأت رفرفة عند زاوية فمه، وتراجع في كرسيه إلى الخلف.

ـ تتحدثين بصراحة يا آنسة تيرانت.. عظيم، فأنا أفضل الصدق على المداهنة.. برغم أننا لن نتفق في الرأي أبداً.. أجل.. وبالرغم من الهالة اللندنية حولك، فقد تمثلين أنت التغيير التي تحتاجه كارلوتا.

ـ إذن أنت تعترف أنها بحاجة إلى تغيير.

ظهرت النظرة الساخرة مجدداً: أنا لا أنكر هذا.. وبرغم مظهرنا السلطوي إلا أننا نتفهم الأمور.

ـ ألا تخشى أن يكون لي.. تأثير ما عليها؟ قد أثير شهيتها إلى الحرية التي أتمتع بها أنا.

قال بهدوء: أبداً.. بل هناك إمكانية أن تؤثر كارلوتا عليك لدرجة تجعلك تتساءلين عن بعض المفاهيم الخاطئة التي تعتزين بالتمسك بها.

ـ أبداً!

أشار بيده ساخراً: لا؟ أين هو فكركم المنفتح الشهير؟ عش واترك غيرك يعيش!.

لم ترد.. فتابع: سنرى.. مهما اختلفت آراءنا.. والآن يجب أن أسألك بعض من تلك الأسئلة السخيفة.. لماذا تسعين إلى العمل في الخارج؟

- لأنني أحب السفر ورؤية الأماكن الغريبة.

- هكذا إذن.. لكن حب السفر والأماكن الغريبة لا يشابه أبداً تأسيس حياة جديدة هناك، ولمدة طويلة.. هل منزل عائلتك ترفرف عليه السعادة؟

- أجل.. وأنا لا أحاول الهرب من الحياة الأسرية التعيسة إذا كان هذا ما تقصد.

- ألا تحاولين الهرب من شيء آخر؟

احمر وجهها: لا! ثم إن حياتي الشخصية ليست من شأنك!

رفع يده: لا تحتجي.. لقد قلت لي ما أردت معرفته.

زمت شفتيها: حقاً؟ إذن لست بحاجة لطرح المزيد من الأسئلة عن حياتي الشخصية.

- لديك شهادة جيدة بحسن أخلاقك من رب عملك السابق.. ولكن لماذا استقلت فجأة ولأسباب واهية؟

أجفلت لتغيير موضوع الحديث بسرعة: أردت التغيير وهذا هو كل شيء.

انحنى رأسه الأسود الشعر للحظات فوق البطاقة التي أتت بها من مكتب التوظيف.. ثم رفع رأسه: حسن جداً.. لن أضغط على شأن يبدو أنه يؤلمك، آه.. أجل.. يا آنسة تيرانت، حين تدخل النار إلى تصرفات امرأة نتأكد حينذاك أن هناك رجل مسؤول. فهل أنا على حق؟

اكتفت غريتا من كلامه، ووقفت: أظن أنه لا شيء لدينا لنناقشه بعد يا سنيور، أتمنى لك الحظ في ما تطلب وأنصحك أن تتحلى بالقليل من اللباقة في المستقبل، إذا أردت أن تجد فتاة إنكليزية تناسب متطلباتكم.. نهار سعيد يا سنيور.. أستطيع أن أجد طريقي إلى الخارج.

تركها حتى اقتربت من الباب، ثم قال بهدوء: لحظة واحدة يا آنسة

تيرانت.. أرجوك أن تسمعيني.. أنا أثق أن سمعتكم الوطنية ستجعلك تكفين عن إطلاق الإتهامات جزافاً فوق رأسي، وربما أعترف أن تصرفي مال قليلاً نحو قلة اللباقة.

وقفت حيث هي لحظة ثم عادت ببطء. كان واقفاً باستقامة متكبرة.. ولم يتحرك حتى جلست على حافة المقعد. فعاد إلى مكانه مسترخياً قليلاً، يتناول علبة سجائر رفيعة محفورة بدقة من جيبه، وفتحها ليقدمها إليها.

- ليس الآن.. شكراً لك.

دون كلام، أقفل العلبة وأعادها إلى جيبه.

- حاولي ألا تكوني منحازة يا آنسة تيرانت.. وتصوري وجهة نظرنا.. لو كنت تسعين إلى فتاة بيرونية لمساعدتك على تعليم أختك وشقيقك الصغير، ووجدت واحدة تعد بكل شيء ترغبين به، وجاءت لتسكن منزلك واكتسبت ثقة عائلتك، ثم غيرت رأيها فجأة وقالت لك إنها ستعود إلى بلادها، فسوف تثير سخطك.. أليس كذلك؟

- طبعاً.. لكن فتاة ذكية لن توقع عقداً قبل أن تكون مستعدة لتفي بشروطه.

رد بهدوء: لكن لو أنها قررت السفر لمجرد تغيير المكان بسبب مغامرة رومانسية محطمة.. بالتالي ستكون تصرفاتها غير مضمونة.. الحطام يمكن إصلاحه ونداء القلب قوي جداً.. خاصة قلب الأنثى.

صمت قليلاً: أنا لا أحاول التطفل على حياتك الخاصة يا سنيورينا، بل لمجرد التأكد من عدم وجود رجل يومىء إليك عبر البحار بعد خمس دقائق من ظننا أن الاتفاق قد تمّ.

تابع بهدوء: صدقيني.. هذا هو السبب الوحيد لمثل هذه الأسئلة الشخصية.. أليس هذا مفهوماً يا سنيورينا؟

ابتسم ابتسامة لها فتنة خاصة، غيرت تماماً قسمات وجهه العنيدة..

كلامه مفهوم ومنطقي تماماً.

قالت بصراحة: أجل.. وأؤكد لك أن قلبي ليس لديه ما يتذكره.

ارتفع حاجباه: القول سهل.. فهل أنت واثقة؟

- واثقة.. فهل يرضيك أن أقول أن الرجل المعني بالحديث ليس حراً؟ ولو أنه حر، فلن يختلف الأمر عندي؟

ساد صمت طويل، ثم قال: عظيم.. والآن.. هناك أشياء يجب توضيحها.. الفيزا، التلقيح، الرسميات. ثم هناك مسألة الملابس.. أعتقد أن من الأفضل لو..

- أرجوك! يا سنيور، هل يعني هذا أنك تعرض عليّ العمل؟

- طبعاً! وماذا غير هذا؟ وأظن أنك لا زلت ترغبين في ذلك.

- آه.. أجل.. لكن ماذا عن السنيورا جورادو؟ لقد فهمت أنها..

لوح بيده بضجر: لا أهمية لهذا. سأقول لها حين تعود إن كل شيء قد انتهى.. أخبريني.. متى تكونين مستعدة للسفر؟

قاومت ضد الدوار: ومتى يُطلب مني أن أكون مستعدة؟

- في أسرع وقت ممكن.. الأسبوع القادم إذا تمت الإجراءات المطلوبة.

نظر متسلياً إلى تعبير وجهها المندهش، وأكمل: الأمر بسيط للغاية.. سنقوم بكل الإجراءات الضرورية لرحلتك وستحتاجين إلى مزيد من الملابس المناسبة.. تذكري أن الطقس عندنا سيبدو لك كالصيف عندكم..

سادت لحظة صمت وأوماً بسخط معبراً عن عدم قدرته على تحمل الجو الإنكليزي البارد: .. وسيكون هناك إجراءات رسمية ستقدمها سفارتنا. سأدفع لك سلفاً الربع الأول من مرتبك السنوي، إضافة إلى ثمن تذكرة السفر.. ولو أعاقك شيء سوف نتعامل معه.

هزت غريتا رأسها لتقنع نفسها أولاً أنها تستوعب كل شيء..

وتابع:

- بالنسبة لتأشيرة الدخول، لن يكون هناك صعوبة في الحصول عليها بسرعة.. وإذا كان هناك أسئلة لم تتمكني من الإجابة عليها، احتفظي بهذه، أظنها ستساعدك.

أخرج بطاقة من محفظته وأعطاها لها بعد أن كتب شيئاً ما على ظهرها.

نظرت إلى حروف الاسم البارزة، ثم أدارتها وشفتيها تنفرجان وهي تقرأ الرسالة التي كتبها: «أرجو تقديم المساعدة اللازمة لحاملتها، الآنسة غريتا تيرانت» وتحتها توقيع أسود: رامون دوغارسيا أي مونتلياس.

ارتبكت غير مصدقة وهي ترفع نظرها إلى العينين السوداوين اللتين يلمع فيهما ألف شيطان.. وقالت ببطء: أنت.. أنت الكونت ذاته؟

أحنى رأسه: اغفري لي فقد نسيت تقديم نفسي إليك حتى هذه المرحلة المتأخرة.. هل أنت مقتنعة الآن أن كل شيء على ما يرام؟

هزت رأسها ثم فتحت فمها قائلة: يبدو لي هذا. أنا.. أتمنى لو كنت أعرف.

- لكنت أقل جرأة في الكلام.. كما أعتقد؟

- وربما.

همس لها بنبرة خافتة: أو ربما أكثر حذراً! فجأة اهتزت ثقتها بنفسها ولم تتمالك نفسها في مواجهة نظرته المقيّمة لها.

- لكنني لم أرغب فيها بهذه الطريقة يا سنيوريتا.

ارتخت رموشها كستار حريري وهي تفتح حقيبتها لتضع البطاقة بحذر في جيب داخلي.. ثم أخذت نفساً عميقاً ووقفت تحاول الاعتذار لرحيلها:

- هل هناك أي شيء...؟

www.rewity.com

وماتت البداية المعتنى بها وهي تنظر إليه لتلتقي بالنظرة التي أربكت رباطة جأشها أكثر مما توقعت.

كان قد وقف بدوره جامداً دون حراك، أطراف أصابعه ترتاح على حافة الطاولة، ولم ترتجف نظرته وهو يقول ببرود: سوف تسامحينني لو قمت ببعض التحريات الشخصية عنك يا سنيوريتا؟

هزت رأسها بعد أن عجزت عن التخلص من القيد الذي فرضه سحره وشخصيته.

- أنت جريئة بغير تحفظ يا سنيوريتا.. وأظنك سريعة الغضب، بطيئة الخضوع، وعنيدة لدرجة مثيرة للسخط.. لكنك تملكين فضيلة الصدق، وهي نادرة بين النساء. ولهذا فقط اتخذت قراري.. وأرجو ألا أندم عليه.

هذه المرة طال الصمت.. ومرة أخرى أحست غريتا بذلك التقلص الغريب في معدتها يسلبها قدرتها على الرد كما تريد، واسترسل الكونت قائلاً بوقار: والآن.. ستتناولين الشاي معي.

* * *

٢ - عينا الفاتح تراقبانها

أعلن الطيار عن الهبوط، وفتشت غريتا عن القفل الخاص بحزام المقعد.. لم تكن الرابعة والنصف صباحاً هي أفضل ساعة في اليوم كله.. فهو أسوأ وقت للهبوط في بلد غريب وأرض مجهولة بعد سفر جوي لمدة ليلة.

أمسكت غريتا متاعها الخاص بإحكام وحاولت إقناع نفسها أن التقلصات في معدتها سببها الهياج الناتج عن طول فترة الطيران حيث طارت اثنتان وعشرين ساعة دون أن تفعل شيئاً سوى التفكير في المستقبل الذي ينتظرها في نهاية الرحلة ودوامة الأسبوع الذي سبقها.

هل انقضت بالفعل عشرة أيام فقط منذ بعد ظهر ذلك اليوم؟ لدهشتها لم تر الكونت بعد هذا اللقاء الرسمي المبهج، والشاي الذي شربته معه. كانت تعليماته دقيقة ومفهومة، ولم تواجه صعوبات في إعدادها لتلك الرحلة.. كان قد اتصل بها في المنزل مرة واحدة بينما كانت قد خرجت تتبضع. فتلقى والدها الرسالة.. وبخيبة أمل لم يطلب رداً أو سؤالاً، لذلك لم يكن هناك مبرر للاتصال به. وعرفت أنه سيغادر لندن في اليوم التالي إلى مدريد، في طريقه إلى جنوب أميركا.. وخطر ببالها أنها لو كانت مستعدة لسافرت معه إلا إذا كان في رحلة عمل ولم يجد ضرورة لمرافقتها له..

توقعت أن ترتجف برداً حين تغادر الطائرة، لكن الجو كان دافئاً

www.rewity.com

رطباً وهي تمر بالإجراءات الرسمية. فكرت أن هذا أقل إثارة مما توقعت.. أخيراً مرت بضابط الجوازات الذي نظر بدقة إلى أوراقها ومد يده إلى الختم، ثم قطب وتفحص الأوراق مجدداً.. ارتجف قلبها، ما الأمر؟

- أنت آنسة تيرانت؟ آنسة غريتا تيرانت؟

- أجل.

نظر إلى أوراقها مرة أخرى ثم ختمها بحماس وطوى الجواز.. فشعرت بالارتياح.. لكن ليتلاشى مجدداً وهو يقف والأوراق في يده ويقول بأدب: أيمكن للسنيورا أن تأتي من هنا.. أرجوك.

ماذا الآن؟ هل سيتم احتجازها؟ وفتح لها باباً جانبياً في الممر وأشار إليها أن تدخل.

كان في الغرفة الصغيرة شخص واحد واقف، وشهقت غريتا: شكراً لله!

ولم تحاول أن تخفي ارتياحها.

اقترب الكونت نحوها: هل هناك شيء خاطىء!

- لا.. لا.. على الأقل أنا..

قال ضابط الجوازات: كل شيء على ما يرام يا سنيور كونت.. أوراق السنيورينا.

وأعطاها للكونت واستدار إلى الباب، ليفرقع بأصابعه ويأتي الحمّال بسرعة ليحمل حقائب غريتا.. وبرغم إحساسها بالتعب شعرت بالاحترام للكونت.

انحنى الضابط: آمل أن تحظى السنيورينا بإقامة طيبة في بلدنا.

ثم عاد إلى عمله.

ابتسم الكونت: حسناً.. أنت هنا أخيراً. هل كانت رحلة لطيفة؟

- أجل.. شكراً لك.

تلاشت ابتسامته: تبدين غير واثقة.. هل يقلقك شيء ما؟

- لا.. لكنني ظننت أن هناك خطأ ما عندما احتفظ ذلك الرجل بأوراقي.. و.. لم أتوقع رؤيتك هنا.

ارتفع الحاجبان الأسودان: بالتأكيد يا سنيورينا، هل توقعت أن تصلي إلى هنا في مثل هذه الساعة من الليل دون أن يكون في استقبالك أحد حتى يصطحبك إلى الڤيلا؟

لم تقل شيئاً.. فجأة شعرت بالتعب وقد انتهى الآن توتر الرحلة الطويلة. نظر إليها ولاحظ ظلالاً ليلكية خفيفة تحت عينيها اللوزيتين، وبرقت عيناه البنيتان القاتمتان.

- لا شك أنك متعبة كثيراً بعد هذه الرحلة.. تعالي.

وضع يده تحت مرفقها وأخذ حقيبة الكتف الزرقاء معه مواصلاً حديثه:

- سيارتي تنتظر خارجاً والرحلة ليست بعيدة.

فيما بعد لم تذكر سوى انطباعاً ضبابياً عن الرحلة القصيرة في السيارة خلال الظلام، وحديقة تفوح منها رائحة الأزهار غير المرئية، وصالون واسع، وجداريات جصية مذهبة، مرايا ضخمة، درج واسع كأنه المروحة الضخمة العاجية والذهبية، والكونت يوصلها لتكون في رعاية امرأة مسنة وجهها وقور.. رفضت المرطبات فأرسلوا لغرفتها صينية حليب وبسكويت.. حين انسحبت المرأة، استلقت غريتا قليلاً تفكر في ظهور الكونت في المطار على غير انتظار. شيء لطيف منه أن يأتي بنفسه ليكون في انتظارها بعد منتصف الليل وقد أراحها ذلك.

هبطت رموشها على خديها، واسترخت قسمات وجهها وارتاحت في الفراش الناعم بأغطيته الحريرية الباردة.. تحركت مرة أو مرتين ترفرف عينيها أمام الضوء القادم من أطراف الستارة.. وكان عليها أن تتأكد من الوقت إلا أنها عادت إلى النوم قبل أن تصل إلى ساعتها، إلى

www.rewity.com

أن استيقظت تماماً مع إحساس مجهول أن أحداً يراقبها.

جلست، فقال صوت صغير بوقار: لقد تجاوزت الحادية عشرة بعشرين دقيقة.. ألن تستيقظي قريباً؟

طرفت عينا غريتا تحاول رؤية المتحدث في العتمة، تبحث عن مفتاح المصباح الذي لم تعتد على مكانه بعد.. وواصل الصوت الصغير: هل أفتح الستارة؟ أعرف كيف تعمل.

عثرت على المصباح في الوقت المناسب لترى جسداً صغير الحجم يفتح الستارة.. فجأة انتشرت أشعة الشمس فوق السجادة الزرقاء، واستدار جسم الولد الصغير لينظر إليها بصمت.. ثم قال: هل يكفي هذا.. أم أرفعها لك.. بوف!

ورفع يديه لأعلى.

- هذا يكفي الآن.. هل قلت إن الساعة تجاوزت الحادية عشرة؟

هز رأسه وتقدم نحوها: هل أنت السنيورينا الإنكليزية التي سافرت كل تلك المسافة من انكلترا بالأمس؟

- أجل.. وأنت؟

- أنا كارلوس.

ومد يده: كيف حالك يا سنيورينا تيرانت.

- كيف حالك يا كارلوس.. أشكرك على إيقاظي.

- ألا تمانعين؟

- أبداً..

سمعا حركة خارج الباب الذي تركه كارلوس مواربياً.. وصوت منخفض متلهف متسائل: أين أنت يا كارلوس؟ أنت لست..

وساد قليل من الصمت، ثم قرع الباب: هل لي أن أدخل؟

ما إن نادت غريتا بالدخول حتى فتح الباب وأطل وجه بيضاوي وسيم يحيط به شعر أسود لامع فاحم، ثم تلاشت الابتسامة المتوترة

ليحل مكانها سخط: إذن أنت هنا! إنك صبي مزعج وتعرف ما قيل لك.

ودخلت الغرفة فتاة فاتنة.

- تعال هنا فوراً.. أنت تزعج الآنسة تيرانت، وهي متعبة جداً بعد رحلتها الطويلة.

قالت غريتا بسرعة: لا تعنفيه! لقد آن لي أن أستيقظ، ولولا دخوله..

اقتربت الفتاة: لا.. لا تنهضي من فراشك، ليس بعد.. يا كارلوس، اذهب وقل لمانويلا.. صينية الفطور.. حالاً.

استجاب كارلوس بنظرة تمرد، واستدارت الفتاة إلى غريتا الناعسة: أنا آسفة لأنه أزعجك.. ستتناولين الفطور في السرير هذا الصباح.. إنها الأوامر.

ترددت غريتا: هل أنت واثقة؟ جئت إلى هنا لأؤدي عملاً لا أن يعتنى بي هكذا.. وكأنني ضيفة عزيزة.

أشارت الفتاة بيديها: إنها أوامر الكونت ألا يزعجك أحد هذا الصباح حتى تشعري بالراحة الكافية، على أن يأتيك الفطور إلى غرفتك.. ولكن كارلوس كان مزعجاً للغاية وعصى الأوامر.. لذلك يجب أن يعاقب.

- آه.. لا.. ليس من أجلي.

خرجت من السرير بسرعة وبحثت عن روبها بين الأغراض التي أخرجتها من الحقيبة، ووضعته عليها: أسعدني جداً مجيئه لإيقاظي.. كيف تعمل هذه؟

- سأريك.

عاد كارلوس للظهور واتجه بكبرياء إلى النافذة ليتعامل مع الستارة الملونة.

www.liilas-writy.com

- شدي بهذا فقط.. هكذا.. وها هي.. يوف!

- كارلوس! تعرف أن هذا محرم عليك. يكفي أنك كسرت الستارة في غرفتك.. الآن تعال ودع ستيوريتا تيرانت في سلام وإلا ستفكر في العودة إلى انكلترا فوراً.

خرج كارلوس من الغرفة بجبين مجعد.. وابتسمت لنفسها، مدركة أن عملها سيكون فيه كل شيء عدا الملل.

وصلت مانويلا بصينية الفطور المنسقة وعلى الستيوريتا أن تطلب أي شيء خاص تريد تناوله. أكدت لها غريتا أن كل شيء ممتاز.. وبعد خروج الخادمة الصغيرة جلست لتتمتع بالفخامة التي لم تعتد عليها.. فمنذ سنوات طويلة وهي تأخذ على عاتقها أن تقدم لأمها كل صباح فنجان الشاي منذ أصيبت بنوبة التهاب الرئتين التي كادت تكلفها حياتها، عندما كانت غريتا في الخامسة عشرة من عمرها..

أفرغت لنفسها فنجاناً آخر من القهوة اللذيذة، وتقدمت إلى الأبواب الزجاجية العريضة وهي تتساءل هل ما يزال والدها يذكر التقليد الصباحي مع الشاي. فتحت إحدى نوافذ الباب الزجاجي.. تنتسم أنفاساً عميقة من السعادة للمنظر الرائع أمامها.

كان للغرفة شرفة تقليدية الطراز، تطل على حديقة وكأنها زاوية من جنة عدن.. تحتها مباشرة تراس واسع، وسلالم تؤدي إلى ممر ملتو بين مروج تحدّها شجيرات زهر حمراء، وتعريشات متشابكة.. طافت عيناها وكأنها في حلم من الحديقة المستحمة بأشعة الشمس، وبركة السباحة المليئة بزنابق الماء الضخمة، إلى الأشجار، والشجيرات المزهرة المتوجة بأزهار ذهبية التي تخفي الممر عن الأنظار. وبعيداً نحو اليسار، مزيد من المروج العشبية وبركة رائعة للسباحة.. واستندت غريتا على سياج الشرفة تتنهد مجدداً.. تنعم بسعادة صافية من خلال وقوفها على الشرفة بثوب نوم حريري رقيق ونسمات الهواء العليل

المعطر تداعب عنقها.

دخلت على مضض.. عليها أن تستحم وترتدي ملابسها ثم تفرغ حقائبها، بعد ذلك ترى كيف توفي التزاماتها.

بعد ذلك بساعة تركت غرفتها، وأطلت من فوق درابزين السلم إلى الردهة الكبيرة تحتها. بدت لها مهجورة، ولا صوت يدل على مكان وجود كارلوتا وكارلوس.. هبطت السلم ببطء ونظرت بتردد إلى صورتها الضائعة في المرآة الضخمة المذهبة.. ثم استدارت نحو باب مزدوج كبير ناحية اليمين.. وطرقته مرتين دون رد. ففتحته قليلاً.. فتح دون صوت وتوقفت على عتبته لا تزال مترددة. سألت نفسها هل تعود إلى غرفتها وتنتظر، ثم أحست أن أحداً يراقبها.. إنها المرة الثانية هذا الصباح.. وصاحت بسخط لخيالاتها السخيفة، كانت مراقبة بالفعل لكن بعينين مرسومتين!

على الجدار البعيد من الغرفة نظرت إلى لوحة زيتية كبيرة.. خطت إلى الأمام لتتعرف فوراً على القسمات الارستقراطية وجذبتها تلك العينين الثاقبتين.

كان الشبه يثير الأعصاب: العينان الدخانيتان.. الأنف الدقيق المعكوف قليلاً.. الفم المتناسق بإصرار حاد... الخطوط.. الجو الأرستقراطي السلطوي والذي لا يقبل أي اعتراض.. كلها تتطابق مع الكونت.. ما عدا بعض الاختلافات التي واجهت غريتا في أول انطباع لها عن مدى قوة صاحب الصورة.

الآن فقط لاحظت اللحية الصغيرة المدببة، الطوق العاجي الملتف حول العنق، ودرع الصدر الفضي يلمع مع أشعة النور، والدانتيل فوق اليد المرتفعة على مقبض السيف.. إنها صورة زيتية لنبيل أرستقراطي رسمت منذ حوالى أربعمائة سنة أو أكثر.

- إذن لقد اكتشفت جدي الأكبر.

شهقت غرينا للصوت العميق الذي جاء من فوق كتفها، والتفتت لتلتقي بالعينين السوداوين، وبتأثير الحقيقة القاسية الأكثر جاذبية من اللوحة.

لو لاحظ الكونت فقدانها لرباطة جأشها فهو لم يشر إليه.. وقال ببرود: هل تجدينه مثيراً للاهتمام؟

- أجل.. إنه.. إنه يشبهك كثيراً.

بدت كلماتها ساذجة وتمنت أن تستعيدها.. لكن الكونت أومأ برأسه للخلف ضاحكاً: الجميع يذكرون ملامح الشبه في أحيان كثيرة.

نظرت مجدداً نحو الصورة: آه.. هل لي أن أسأل كيف كان؟

- طبعاً.. فنحن فخورون به كثيراً.. لقد خدم مع «بيزارو» وأصبح ضابط أمن.. أحد مؤسسي هذه الأرض كما نعرفها اليوم، أترين..

لامس كتفها بخفة: هذه خوذته وسيفه.

انتبهت للأشياء الأخرى قرب اللوحة: سيف معلق على الجدار تحت اللوحة على رف من الآبنوس المطعم بالعاج، خوذة مصقولة تزينها نقوش رائعة.. ونظرت إلى العينين السوداوين للكونت: هل كان أحد الغزاة الفاتحين؟

هز الكونت رأسه.

مدت يدها تتلمس حافة الخوذة.. ثم قالت بهدوء: في أول الأمر كان هناك القليل منهم. أليس كذلك؟ لقد رسم بيزارو خطاً فوق الرمل بسيفه على شاطىء جزيرة «غالو» وتحدى رجاله أن يعبروه.. وهكذا زحفوا حتى امبراطورية «الانكا»، كانوا حفنة صغيرة من الجنود ومع ذلك احتلوها.

- أقل من عشرين رجلاً عبروا ذلك الخط، ليغامروا في منطقة مجهولة يواجهون المرض والمخاطر لاكتشاف أرض الثروات التي كان بيزارو قد آمن بوجودها.. حين نجح أخيراً في التغلب على المعارضة،

والحصول على الإمداد بالجنود، كانت القوة أقل من مائتي جندي دمّر بهم قوة امبراطورية الانكا وضم البيرو إلى إسبانيا.

التفت الكونت وهو ينهي حديثه، وسحب السيف من على الجدار ثم ناولها إياه كي تفحصه وتتحسس نصله بيدها.

وهو يرفع رأسه ينظر إليها ارتجفت.. تحت هذه الواجهة المتمدنة للقرن العشرين، يجري دم الغزاة الناري وعجرفة إرثه.. وصمتت غرينا.. قصص الفاتحين تشبه الأساطير... بقسوتهم التي لا ترحم قهروا كل مقاومة وحصلوا على كل شيء، سواء كان الذهب أو المحاصيل أو حتى الحياة نفسها.

قال: ألا تهتمين يا سنيوريتا بالاقتراب من هذه الأسلحة؟

- طالما لم تلوثها الدماء.. يا سنيور كونت.

أعاد السيف إلى مكانه: التاريخ مفعم بالدماء.. ولا يستطيع أحد الهرب من ذلك. إلى أي مدى تعرفين تاريخنا يا سنيوريتا؟

- أعرف ما يكفي بشأن بيزارو وجنوده الذين اغتصبوا هذه الأرض وأخضعوا شعبها الشجاع برغم حضارته.

- واستعبدوا الكثير من الناس، فقد كانت حضارتهم تحفل بالقسوة الرهيبة التي لا يمكن تحمّل التفكير بها.

رفضت التراجع بفزع: في المكسيك، هذا صحيح.. فلقد مارس شعب «الأزوتيك» دياناً سيئة.. لكن شعب الانكا كان له حكام تميزوا بالعدل والحكمة حتى مع القبائل التي كانوا يخضعونها..

- ليس دائماً.. كانوا يسلبونهم، ويستعبدونهم، ويستولون على ممتلكاتهم..

- لكن يجب أن يكون هناك نظام في كل المجتمعات المحكومة.

هز رأسه بوقار: صحيح.

- إذن، فقد هدمتم طرقاتهم ودمرتم معابدهم، وتلك أشياء رائعة لا

www.rewity.com

يمكن بنائها من جديد.. فلماذا؟ لماذا يسلب الفاتح وينهب ويدمر؟ ألا يكفيه الانتصار فحسب؟

رد بنعومة دون أن يتأثر بهجومها عليه: وهل تشعرين باشمئزاز من خطايا أسلافي، يا سنيوريتا؟ وهل تشعرين بذات الاشمئزاز من خطايا أجدادك؟ أم أن ذلك أمر مختلف؟

- نعم، ولا.. فقد فعلنا أشياء كثيرة لا نفخر بها.. وندرك أيضاً مساوىء ثورتنا الصناعية الرهيبة، لكننا نحاول إصلاحها.. فقد عبّدنا الطرق، ولم يتم تدميرها.. وجعلنا الطب والدواء في خدمة المحتاجين.. وحاولنا حماية الأقليات.

- آه.. أجل. حب الإنسانية ولو كانت مضللة أكثر الأوقات.. يجب أن يكون بيننا المزيد من النقاش حول آثام أسلافي المشاهير. وسوف أصطحبك لزيارة ضريح بيزارو، هناك لوح تذكاري حفر عليه أسماء الغزاة الأوائل، لكن علينا في الوقت الحاضر أن نهتم أكثر بأمور الدنيا.

تذكرت أنها هنا منذ خمس دقائق فقط وبرغم هذا فها هي تلقي محاضرة على رب عملها حول آثام آبائه!

- آه.. أجل.. أجل يا سنيور. كنت أسعى لشخص أساله عن واجباتي.

هز رأسه بلامس جرساً: أرجوك اجلسي يا سنيوريتا.. هل ترغبين القهوة؟ أم تفضلين شيئاً بارداً؟

- القهوة.. أرجوك.

حين وصلت القهوة، نظر الكونت إلى رسالة أتته بها الخادمة ثم وضعها وأسند ظهره إلى الخلف في مقعده، ووضع ساقاً فوق الأخرى ليحدق في وجه غريتا بإمعان.

- لا شيء يستوجب مناقشته يا سنيوريتا.. كارلوس مع أستاذه

الخاص كل صباح، وهذا روتين لا أرغب في تغييره.. ثلاث مرات في الأسبوع، بعد الظهر دروس في الموسيقى والحساب واللغة الفرنسية.. معظم الأيام يمتطي جواده في الصباح.. وهذا يشغل معظم الوقت.. وأريده قضاء بعد ظهر الأيام الأخرى، بعد «السياستا» أي قيلولته طبعاً، في ساعات فراغه معك، وأظن أن هذا سيحسن حديثه بالإنجليزية.

صمت الكونت قليلاً وأطرق يفكر ثم قال: سيكون اهتمامك بابنة أختي أساساً.

هزت غريتا رأسها تتذكر مناقشتهما الأصلية: هل أنهت دراستها يا سنيور؟

- كانت في عامها الدراسي الأخير حين قُتل أختي وصهري في حادث مأساوي.. كنت أخطط لإرسالها هذه السنة إلى أوروبا لتستقر في سويسرا في مدرسة لتأهيل البنات.. لكنها خشيت السفر بعيداً عنا حتى أننا تخلينا عن فكرة السفر مؤقتاً، ولذلك أنت هنا الآن.

عاد للصمت وقطب حاجبيه: هناك نقطة واحدة ينبغي التركيز عليها.. نسيت إذا كنت قد ذكرتها لك أم لا.. إن كارلوتا وريثة ثروة أمها الشخصية.. حين تبلغ الواحدة والعشرين ستكون امرأة ثرية جداً.. وأنت يا سنيوريتا ستلعبين دور مرافقتها وعلى هذا الأساس يجب أن تتعاملي معها.

لا بد أن غريتا أظهرت حيرتها لأنه واصل بحزم: عليك بالتحفظ، وخلال خروجكما سوياً لا تدعيها تعقد صداقات غير مرغوب فيها.. هل هذا واضح؟

- آه.. أجل.. يا سنيور.. أنت تعني أننا يجب أن لا نلتقط شباناً غرباء أثناء مرافقتي لها.

زم شفتيه تبرماً: يا لهذا التعبير! نلتقط.. لكنك فهمت مقصدي.

تراجع رأسه إلى الوراء يفكر فيها: كذلك.. أنت أيضاً عليك

بالحذر ألا «تلتقطي» أي شاب غريب في أية مناسبة، وأنت معنا.

ارتجف فمها: نعم يا سنيور.

وضع إصبعه على ذقنه: لا أرى صعوبات أخرى.. لو واجهتك أي مشاكل أخبريني.. أنا دون غيري حيث أن جدتهما غائبة في الوقت الحالي، وأنا لا أريد من الدونا إيزابيلا أن تقلق فهي في حالة صحية غير جيدة، هل هناك شيئاً آخر ترغبين بمعرفته؟

- لا أظن هذا.

- حسناً.. أرجو أن تكوني سعيدة معنا يا سنيوريتا.

- شكراً لك يا سنيور كونت.. أنا واثقة أنني سأكون سعيدة.. وأرجو أن يكون ولدا أختك سعيدين معي.

أحنى رأسه تحية ووقف.. واضح أن المقابلة انتهت.. وتحرك نحو الباب ثم توقف: هناك فقط نقطة صغيرة أخرى، يا سنيوريتا..

انتصبت بغير حذر للحظات، وابتسمت: نعم يا سنيور؟

- إنها مسألة ظهورك على الشرفة.

تلاشت ابتسامتها: أرجو عفوك؟

- يؤسفني أن شرفتك لا توفر لك الخلوة التامة.. وأرجو عفوك لتذكيرك بطريقة غير لبقة هكذا.

تذكرت ما غاب عن بالها، وتدفق اللون الأحمر إلى خديها: آه! هذا الصباح.. ما كنت أظن.. آه.. لا.. يا سنيور! لم يخطر ببالي أن..

- أنك مراقبة؟

أحست بامتقاع وجهها: لا.. أنا آسفة.. أفهم اعتراضك تماماً.. لقد نسيت أن هنا..

رفع يده: أرجوك، لا تعتذري.. وكلمة الاعتراض كلمة خشنة.. خاصة في هذا المجال يا سنيوريتا.. أنا شخصياً أعتبر أن فرحك

بالصباح أكثر فتنة من أن تخفيه.. لكنها فتنة على أي حال أفضل أن تخفى عن كل أفراد منزلي.. موافقة؟

- تماماً يا سنيور كونت.

لن يخفى على أحد ذلك اللمعان الماكر في عينيه، رغم تجهم وجهه.. وعندما أدركت مغزى ملاحظاته كاملة، أصبح لونها قرمزياً.

فتح الباب فسارعت إلى الخروج بارتباك.

لن تنسى أبداً ولمدة طويلة عيني الفاتح الغازي.. ولكن في هذه المرة لم تكونا مرسومتين!

• • •

www.rewity.com

٣ ـ مبارزة بالسيف

لم تدر غريتا إن كانت شاكرة أم آسفة حين أبعد العمل الكونت عن المنزل ذلك اليوم وأبقاه بعيداً حوالى أسبوع.. عندما اكتشفت غيابه، أحست فجأة إحساساً مزعجاً يدركه سباح مبتدىء عندما يلقي في بركة عميقة! من ناحية أخرى، لم تندم على هذه الفرصة القصيرة كي تتعايش مع مجتمعها الجديد.

برغم أنها عوملت باحترام شديد من العائلة والخدم على حد سواء، فقد أحست بأنها غريبة عندما كانت تواجه الرسميات المتباعدة وسرعة التأثر العاطفي التي بدا أنها تلوّن طباع اللاتين.. أرض البيرو الاستوائية سحرتها.. وبرغم خجلها في البداية، لكنها سرعان ما اكتشفت أن الابتسامة طلسم يفتح كل شيء، وأن ليما مدينة جذابة معتنى بها جيداً. وسكانها يتميزون بالود تجاه الغرباء المتواجدين بينهم.

لكن في «الكوينتا» أو الڤيلا كان الأمر مختلفاً. كارلوس وكارلوتا بدوا في أفضل تصرفاتهما، كما تلقيا التعليمات من الكونت بنفسه أو من خالتهما الكبيرة دونا إيزابيلا التي كانت تعاني من الروماتيزم عندما وصلت غريتا، وتظل دائماً ملازمة لجناحها.

انقضت عدة أيام قبل أن تستدعى غريتا لتقدم نفسها إلى الدونا إيزابيلا.. أدركت سلفاً رهبة الولدين من خالتهما الكبيرة، فاستعدت وتوجهت للقاء المتسلطة لتكتشف سيدة عجوزاً ضعيفة، صغيرة

الجسم، جمالها الأنيق وأخلاقها الهادئة يسلبان اللب تماماً.

بالرغم من هذا، كان الاستجواب شاملاً. وجلست دونا إيزابيلا منتصبة، جسد صغير صلب في مقعد مرتفع الظهر من خشب الأبنوس المحفور، وطوق فضي ناعم الزخرفة على عنقها، شعرها الأبيض ممشط بإتقان.. عيناها السوداوان اكتسبتا مكر السنوات دون أن تفقدا النار في جمالهما الشاب.. في البداية شجعت غريتا على التفوه بانطباعاتها عن مجتمعها الجديد ثم استفسرت عن موطنها وعائلتها في إنكلترا.. ورأت الصور التي أحضرتها غريتا معها، ولاذت بالصمت لحظات بعد أن أعادتها إليها.. أخيراً قالت: أجل.. أظن أن ابن أختي قد أحسن الاختيار.. كنت أشك في هذا عندما علمت بصغر سنك.. آه.. أجل. أنت صغيرة جداً، بالكاد تكبرين ابنة أختي الصغيرة بعامين.. لكن سنتان في سن الشباب لهما تأثير كما في سن الكبر.. وأنا واثقة أنك ستستغلين ذلك بحكمة، ولن تسمحي لها بأن تتجاوز النظام.

قالت غريتا بجدية: سأحاول هذا.. لكنني آمل أن أكون صديقة لها أيضاً.

هزت دونا إيزابيلا رأسها: أنا واثقة أنها ستفعل.. لكن هناك شيء أريد أن أذكره ويتعلق بك.

ارتجفت غريتا، تتساءل ما إذا كان ما تراه في العينين السوداوين الماكرتين هو إنذار ما.

ـ قد تجدين عاداتنا غريبة.. وقد تواجهين متاعب لا تتوقعينها. لو حدث ذلك تذكري أننا سنحاول تفهم الأمر وتقديم النصيحة.. نحن نتمنى لك السعادة والقناعة هنا.

ـ أنا واثقة من هذا.. شكراً لك.. أنت لطيفة جداً.

باندفاع تقدمت غريتا لتقبل خد دونا إيزابيلا الرقيق.. وهي تستقيم، كانت تتساءل عما إذا كانت أزعجتها بمثل هذه الحركة، لكنها

لمحت في عينيها بريق التسلية. ثم ابتسمت قائلة: أرجو ألا أذكرك بالحذر عند توزيع إشاراتك الإنجليزية العفوية، لأن شبابنا ليس معتاداً على تلقيها من فتاة، عدا أفراد العائلة وطبعاً العجائز أمثالي..

لم تستطع غريتا كبت ابتسامة.. كان لديها إحساس أنها ستحب دونا إيزابيلا كثيراً.. وقالت بوقار قدر استطاعتها: سأتذكر هذا التحذير يا دونا إيزابيلا.

تلاشى اللمعان من عينيها وتنهدت: سامحيني يا عزيزتي على هذا الإنذار الذي في غير محله.. لكن.. الأزمنة تتغير حتى هنا.. المقاييس القديمة تتلاشى، والتقاليد تصبح شيئاً يتفوه بها الإنسان، لكنه لا يطيعها دائماً.. لذلك أتساءل أحياناً..

صمتت مع طرقات خفيفة على الباب، وفتح فوراً ودخلت فتاة طويلة القامة ورمقت غريتا بنظرة ثم تقدمت في الغرفة.

من الطبيعي الانشداد إلى ملامح تلك الفتاة.. جمالها الأسمر الصارخ كان مؤثراً، بشرتها الناعمة كأنها الساتان العنبري أمام فستان أبيض حريري يداعب جسدها المتناسق الجميل.. كان حولها هالة نبل، ويبدو أنها من المقربات للدونا إيزابيلا، وقد لاحظت غريتا سعادتها.

تراجعت غريتا قليلاً، إلى أن تتمكن من الخروج بأدب، لكن دونا إيزابيلا استدارت وأشارت بيدها تنقل بصرها بين الفتاتين: استريلا.. أنت لم تلتقي بعد بالآنسة تيرانت.. أليس كذلك؟ لقد جاءت من انكلترا لتساعد الولدين في دراستهما.. غريتا، هذه سنيوريتا بيلار الابنة الصغرى لأعز صديقة عندي.

لامست أصابع طويلة باردة نحيلة أصابع غريتا وابتعدت.. وقامت العينان السوداوان بتقييم الهادئة الشقراء بفستانها الأزرق.. ثم استدارت إلى دونا إيزابيلا تبتسم بشيء من التنازل اللطيف: أجل.. لقد أخبرتني تيريسا أن الكونت قرر أن يختار بنفسه، وكانت قلقة قليلاً لهذا.

صمتت قليلاً ثم هزت كتفيها بعدم اكتراث: لكن يجب أن أعترف أن لهجة الآنسة تيرانت ممتازة.. كل ما أرجوه أن لا تؤثر على كارلوتا فتزيد من غبائها. أتعرفين؟ لقد رأيتها تركب جوادها وحدها مع ميغيل في الأسبوع الماضي.. لا أصدق أن هذا كان بموافقة الكونت.

دهشت دونا إيزابيلا: صحيح؟ هل أنت واثقة من هذا يا طفلتي؟

- متأكدة، مع أن أحداً منهما لم يرني.. آن الأوان لتدرك كارلوتا أنها لم تعد طفلة وألا يسيء ميغيل استخدام مركزه هنا.

هزت دونا إيزابيلا رأسها: لم يكن لدي فكرة أن ابنة ابنة أختي لديها عادة أن تركب الجياد وحدها مع سكرتير ابن أختي.

ضاق حاجباها فوق عينين متهمتين أدارتهما نحو غريتا: هل هذا صحيح؟

ردت بشيء من الارتباك: لست أدري، ولا أعرف من هو ميغيل.

- بالطبع لا تعرفينه..! وكيف يمكن أن تعرفيه؟ لم تتح لك الفرصة بعد للقاء الشاب الذي نتكلم عنه، فهو شاب جذاب للغاية، لكن...

قطبت دونا إيزابيلا ثانية، وضربت أصابعها النحيلة على عكازها:

- سوف نتحدث في هذا الشأن فيما بعد حين يعود ابن أختي.. والآن أخبريني يا عزيزتي، لماذا جئت إلى هنا اليوم؟

- لأسألك عن موعد عودة رامون. فلم نكن نعرف أنه سيبقى بعيداً لوقت طويل.. أسبوع تقريباً. تعرفين أن تريستا عادت بالأمس من مدريد.. وهي لا تزال حزينة. نحن نأمل أن ترتفع معنوياتها نتيجة الاحتفال المقدر في نهاية هذا الأسبوع.. ستأتون جميعاً كما أظن. هل استعدت عافيتك يا دونا إيزابيلا؟

- ولماذا تظنين إذن أنني اعتنيت بهذا المرض اللعين لما يقرب الأسبوعين؟ حتى لا أظل تحت رحمته في نهاية هذا الأسبوع.. بالتأكيد سأكون معكم.. لكنني أتحدث عن نفسي، وبشأن رامون لا أستطيع أن

أقول شيئاً يا عزيزتي.. من يستطيع؟

فكرت غريتا بشغف: أجل من يستطيع؟

كانت قد انسحبت لتترك دونا إيزابيلا وزائرتها الصغيرة في جدال عنيف حول الحفلة القادمة في مزرعة بيلار، والتي دعي إليها حوالي أربعين مدعواً.. ومن المتوقع أن تكون حفلة رائعة برغم أن الكونت قد لا يستطيع العودة في الوقت المناسب لحضورها.. لكنه سيحضر، غريتا كانت واثقة من هذا، إلا إذا كان منيعاً ضد نيران الهجوم الأنثوي.. فمن الطريقة التي تكلمت بها استريلا بدا أن وجوده أساسي لتتم سعادة تيرستا وتستمتع بالحفلة.

لا شك أن هذه هي سنيوريتا جورادو التي كان تُجري المقابلات في لندن.. فقد أشار الكونت إلى من تدعى تيريستا عندما أجرى المقابلة بنفسه.. إذن، تيريستا أرملة شابة، ولقد حان موعد انتهاء فترة الحداد.. شقيقتها استريلا قلقة على سعادتها، لكنها لم تكن قلقة على كارلوتا..

خرجت غريتا إلى الشرفة، وقد أحست أن حديث استريلا للدونا إيزابيلا فيه شيء من الحقد على ابنة أختها الصغيرة.

كانت كارلوتا لا تزال تقرأ عند بركة السباحة حيث تركتها غريتا منذ ساعة حين استدعتها الدونا إيزابيلا.. بدت يافعة وضعيفة معرضة لكل أنواع الأخطار أثناء جلوسها هناك، جسد نحيل صغير في ثوب أبيض ينحني رأسها الأسود الشعر فوق كتاب. وقفت غريتا، وعيناها تتساءلان ماذا تنوي كارلوتا؟ فهي لم تذكر أبداً اسم ميغيل مع أنها أشارت بلا مبالاة لبراعته في السباحة عندما سبحت أول مرة مع غريتا في البركة. واضح أن ميغيل هذا هو أحد أفراد المنزل.. وهو أيضاً ليس بالرفيق المناسب ليمتطي الجياد مع كارلوتا.. حسب الأعراف الإسبانية!

هزت غريتا كتفيها ونظرت في ساعتها.. لقد حان وقت إيقاظ

كارلوس من قيلولته.

دخلت المنزل مرة ثانية وهي تبتسم.. خلال الأيام الأولى من حياتها الجديدة، اكتشفت أن وقت الراحة أطول، وأن أوقات الطعام مختلفة.. الآن هو وقت الدرس لكارلوس، وحتى السادسة والنصف حيث يتناول شراب شوكولا قبل أن يعود إلى النوم.

- كارلوس.. حان وقت..

وتوقفت عند الباب... لم يكن كارلوس هناك.. لا تزال آثار نومه فوق السرير.. بينما الستائر المعدنية مفتوحة جزئياً.

سترتها غريتا حتى عادت إلى طبيعتها، ثم التقطت منشفة وأعادتها إلى مكانها وأحكمت إغلاق صنبور الماء الذي تتساقط منه قطرات فوق المغسلة، وخرجت تبحث عنه.

وضعت كارلوتا الكتاب الذي في يدها وتنهدت: لا.. لم أره. أخشى أن يكون ابتهاجه بك قد تلاشى الآن بعد أن اعتاد عليك..

ابتسمت غريتا: أتعنين أنه عاد إلى طبيعته وأنه أحسن صنعاً في تصرفه لخمسة أيام وأن هذا وقت طويل بالنسبة لصبي في السادسة؟

تنهدت كارلوتا مجدداً: تعالي وأنا أساعدك في البحث عنه.. لا بد أنه في الاسطبل أو الكوخ الصغير الذي يوجد فيه محرك للنوافير، أو في مكتبة الكونت، تلك هي الأماكن المحرمة عليه.

كان كوخ المضخات الصغير فارغاً.. عندئذ التفتت كارلوتا إلى غريتا:

- سوف أذهب لأبحث عنه في الاسطبل، بينما تبحثين أنت في المكتبة.

ترددت غريتا.. الاسطبل، وركوب الخيل؟ حتى تذكرت غياب الكونت وسكرتيره.

- حسناً.. سألقاك عند البركة.

دخلت المنزل ولم تلق أحداً.. بل سمعت فقط أصوات الخدم يتابعون أعمالهم.. بدا كل شيء صامتاً عندما اقتربت من المكتبة.. لكن الباب المزدوج كان ثقيلاً صلباً يمنع خروج أي صوت. فتحته لتستقبل شهقة حادة فيها إحساس بالذنب.

يبدو أن كارلوس كان مختفياً، وتقدمت إلى الداخل بإصرار.

- هيا اخرج.. أستطيع أن أراك يا كارلوس.

خرج بهدوء من وراء كرسي مرتفع محفور، فنظرت غريتا إليه بضيق. كان يضع خوذة الفاتح على رأسه الأسود الصغير تكاد تخفي عينيه، والسيف يلمع بين يدين أكثر صغراً من أن تمسكاه بقوة وأمان.

- كارلوس.. أنت جندي رائع، ولكنك في حاجة ماسة إلى النظام.. ضع هذه مكانها فوراً.

مضت لحظة تردد، ثم برق الأذى في عينيه: لا! فأنا القائد. ولسوف ألقي القبض عليك. أجل! ستكونين سجينتي يا سنيوريتا غريتا..

- لا، أيها اللعين!

ورمت نفسها نحوه، وأدركت أنها مخطئة.. وهذا هو ما يريده.. بصيحة انتصار، ابتعد.. صبي صغير يتحداها أن تلحق به. إنه سريع رشيق وذكي.. توقفت غريتا مذعورة خشية أن يسقط ويؤذيه النصل.. وقالت بهدوء قدر استطاعتها: ماذا سيقول خالك لو رآك هكذا؟

تجول كارلوس كأنه فارس منتصر في الغرفة وهو يقول: لا شيء.. لأنه ليس هنا.

لكن الخوذة غدرت به وهبطت إلى الأمام لتغشي بصره.. فتوقف ليعدّل من وضعها على رأسه.. عندئذ سارعت غريتا إلى السيف وكل همها أن تعيده حيث كان بعيداً عنه.

لم تكن سرعتها كافية فقد أمسك كارلوس به في ذات اللحظة،

وأحست غريتا بألم حاد في ذراعها.. فصاحت لا إرادياً، ووقع السيف على الأرض ورأت الدم ينزف من ساعدها.

نظر كارلوس إليها بسكون. وغطت الجرح بيدها الأخرى.. ثم هزت رأسها له، فبدا الفزع على وجهه الصغير المختفي تحت الخوذة وهمس:

- كانت لعبة جيدة.. أجل؟

ابتسمت بارتجاف: أجل يا تلميذي الصغير.. ولقد ربحت. وأنا أستسلم الآن، من الأفضل التوقف عن اللعب وإعادة السيف حيث كان.

انحنت تلتقطه، وتراجع الصبي خطوة: هل جرحت.. حقاً؟

- أجل حقاً.

أحست بالفولاذ بارداً بين يديها، وآلمها الجرح لكنها حاولت تجاهل الألم، وأدركت أن كارلوس كان يتأرجح ما بين الذعر والذنب.. وأن الغلطة لم تكن غلطته تماماً.

- هيا الآن.. اخلع الخوذة كي نذهب إلى كارلوتا لتؤدي دور الممرضة وتضمد لي ساعدي.

لكنه لم يضحك، بل تقدم إليها ليمسك معصمها بأصابع قوية وعيناه متسعتان.. ثم همس: لكنني لم أطعنك حقاً؟ هذا ليس دماً حقيقياً!

- إنه دم بكل تأكيد!

أجفل الرد البارد غريتا بشدة.. لكن هذا لا يقارن بتأثيره على كارلوس فرفع رأسه يحدق في الوجه الغاضب الذي لم يسمعه لا هو ولا غريتا يدخل.. وتراجع خائفاً..

- تيو! ما كنت أعرف! ولم أقصد..

قال الكونت ببرود: سأسمع شرحك فيما بعد.. أرسل مانويلا إلى هنا.. ثم اذهب إلى غرفتك.

www.rewity.com

انكمش الفاتح الصغير وهرب، فاستدار الكونت إلى غريتا.

كانت تحاول الوصول إلى الخطاف الذي يعلق عليه السيف عادة. وبضجر أخذ السيف منها، وغطى الجرح بيده الأخرى.. وسأل: كيف حدث هذا؟

- مجرد حادث.. وأنا آسفة.. لكن أرجوك لا تلم...

أخضعتها النظرة الطويلة من عينيه السوداوين مثلما أخضعت كارلوس.. كان يمسك بمعصمها يمسح الدم بمنديل أبيض ثم يتفحصه عابساً.

أحست بحرارة مفاجئة وقالت: إنه مجرد خدش، أرجوك لا تقلق عليه.. سوف..

قال متجهماً: سأسمع تفسيرك فيما بعد. بعد أن.. آه.. مانويلا..

أسرعت الخادمة الصغيرة إلى الغرفة تجفف يديها بمريلتها، وقالت بلهفة: نعم يا سنيور؟ لم نسمع بوصولك يا سنيور.. نحن.. أوه!

رأت السيف ملقى على السجادة العاجية اللون والمنديل الملطخ بالدم ووجه غريتا المحمر. فرفعت يديها إلى السماء وتمتمت بكلمات إسبانية سريعة.

- كفي عن هذا.. وانسي الأمر. وهيا أعدي للسنيوريتا كوب شاي إنكليزي.. على الفور!

وأدار ظهره إلى مانويلا التي لوحت بيديها بجنون ثم ربط المنديل حول الجرح، وقاد غريتا بحزم نحو الباب.

أدركت أن الجدال لن يجدي فخضعت لقيادته لها نحو غرفة صغيرة قرب باب الشرفة وهناك أجبرها على الجلوس، بينما سكب الماء فوق المغسلة وأخذ منشفة نظيفة من خزانة وهو لا يزال متجهماً يغضب وانهمك في تطهير الجرح ثم وضع لها قطعة شاش مليئة بالمواد المطهرة.

ارتجفت ألماً لحريق المطهر المفاجيء، فاشتدت أصابعه حول معصمها بلمسة حانية حتى تلاشى الحريق.. بالرغم من هذا أحست بدفء غريب يتدفق في شرايينها.. وقلبها ينبض بسرعة.

ربط لها الجرح بقماش معقم، عندئذ هزت رأسها كأنها تحاول كسر طلسم الفتنة، وقالت مرددة: إنه مجرد خدش.. ولا داعي للقلق.

- إنه خدش عميق لدرجة يشوه ساعدك ويلطخ فستانك بالدم.. ثم لماذا لا أنزعج؟

بدأت تفقد سيطرتها على نفسها: حسناً.. إنه.. لست أدري.. لم أتوقع حدوث هذا.. أنا..

وصمتت مجدداً وقد أحست أنها تقول أشياء خاطئة.. رفعت نظرها إليه وأحست بصراحتها القديمة ترجع إليها: أنت لطيف جداً.. كنت أتوقع أن أقوم بواجباتي.. وأن أعتني بنفسي.. حين تحدث أشياء صغيرة كهذه.. لكنك أنت دائماً هكذا.

مزق طرف الرباط ثم ربطه: ماذا تعنين.. بأنني دائماً هكذا.

- حسناً.. ودود.. حنون وكأن هذا حدث في بيتي، فقد كان والدي يثور دائماً عندما كنت أقع على الأرض وأؤذي نفسي.. وأنا طفلة صغيرة..

وصمتت، فقد وقف يستند إلى الرف الرخامي الأخضر، كان من الصعب استطلاع ملامح وجهه، وقال: كنت غير واثقة ما إذا كنا سنعاملك كخادمة أو تشاركينا جو الأسرة؟

- شيء كهذا.

- وأصابتك الدهشة لأنك لاحظت أننا لا نختلف كما توقعت؟ في الواقع لا زلنا متمسكين بالروابط الأسرية المتينة أكثر مما في بلادكم.

لم ترد.. فلمعت عيناه وقال ساخراً: أظن أنك مندهشة.. وأنا مسرور لأنك أدركت أن لنا قلوب مثل كل الناس. لكن أخشى أن لا

أشعر بالأبوة فيما فعلته لك.

احمر وجه غرينا.. ووقفت تعرف أنها ستتعثر في كل ما تقوله: شكراً لك.. للعلاج الأولي و.. أرجوك لا تلم كارلوس.. لم تكن غلطته.

فتح لها الباب: لا..؟ أعرف ابن أختي الصغير.. وهو يعرف أيضاً أنه من غير المسموح الدخول إلى غرفتي الخاصة.

ـ أجل.. وكان يجب أن أمنعه.. لكنني كنت مع خالتك واستيقظ قبل أن..

قاطعها بحزم: لا داعي لأي تفسير آخر. اذهبي لتناول الشاي، لا بد أن ماتويلا قد أعدته الآن.

ـ أجل.

لكنها ترددت عند أسفل السلم: لكنك لن تعاقب كارلوس بسبب...؟

ـ بسببك؟

هزت رأسها بالإيجاب، فارتفع حاجباه: إذا كنت سامحته، فيجب أن أسامحه أنا كذلك.. لأن الجرح ألمك أنت.

ابتسمت له: شكراً لك.

في تلك اللحظة دخلت الخادمة الصغيرة تحمل صينية الشاي وتنهدت غرينا واستدارت على مضض لتواجه استريلا وجهاً لوجه.

بدت الفتاة الاسبانية حائرة وتملكها الإحباط، ثم ضحكت: جعلتني تلك الفتاة الغبية أظن أنك في خطر وأنك تنزفين حتى الموت، فماذا حدث؟

لاحت ابتسامة على فم الكونت وهز رأسه: لا شيء أبداً.. سوى مبارزة بالسيف بين السنيوريتا تيرانت وأحد الغزاة، وخرجت خاسرة. أليس كذلك يا آنسة تيرانت؟

ردت له الابتسامة: هذا صحيح.. وأظن أن حظي سيكون أوفر في المرة القادمة يا سنيور.

أحنى رأسه ساخراً: حتى المرة القادمة يا سنيورينا.

استدارت ولاحظت التجهم في تعبيرات وجه استريلا بيلار، بل الواقع أنه استقر على وجهها تعبير كراهية واضح.

* * *

دهشت غرينا في الصباح التالي لاستدعائها للرد على مخابرة هاتفية، ووجهت لها استريلا تحية بصوت عذب.. وزادت دهشتها عندما دعتها بعد مقدمة قصيرة مهذبة للانضمام إلى الحفلة في المزرعة وقالت برقة:

ـ أعذريني على هذه الطريقة غير الرسمية للدعوة.. لكن لأنك إنكليزية فلن تمانعي، أنا واثقة.. أليس كذلك؟

قالت غرينا بشيء من الحذر: لكن ينبغي أن أعرف إذا كان لدي عطلة في نهاية الأسبوع قبل قبول دعوتك.

ـ لقد دبرت لك هذا الأمر.. تحدثت إلى الدونا إيزابيلا، وتركت لك أمر القبول أو الرفض.

فكرت غرينا بسرعة، ثم قررت: شكراً لك.. يسرني قبول دعوتك.

ـ إذن سأتطلع شوقاً إلى تأكيد معرفتنا لبعضنا.. وداعاً يا آنسة تيرانت.

عادت غرينا إلى البركة وهي غارقة في التفكير وأخبرت كارلوتا بأمر الدعوة.. فقالت كارلوتا: أنا مسرورة لذلك.. كنت ستشعرين بالوحدة لو بقيت هنا وحدك. مع أنني أعتقد أن تيو غيّر رأيه في مسألة الذهاب.. لأن زميله في العمل سيصل ليما يوم السبت في عمل طارئ، ويجب أن يقابله.

www.rewity.com

إذن لن يكون الكونت في الهاسيندرا.. لكن من الغباء التفكير بهذا الأمر.. صرفت التفكير في الكونت عندما بدأت كارلوتا الحديث، وقالت باستغراب: هل قلت إنك لا تودين الذهاب يا كارلوتا؟

هزت الفتاة رأسها ولاحظت غريتا أنها لا تزال تبدو مقهورة كما كانت في اليومين الماضيين. وترددت تحس بأن شيئاً يقلق كارلوتا، وأرادت التخفيف عنها لكنها كانت تعي أن صداقتهما لا زالت غضة وأن هناك شيء من تحفظ بينهما.. وقالت بخفة: ابتهجي يا كارلوتا.. لا شك أنها ستكون مناسبة مبهجة.

- أنا لا أحب استريلا.. ولا حفلاتهم.. لا زالوا يعاملونني كطفلة برغم أنني في السابعة عشرة من عمري.. وهذا أمر سخيف.

فكرت غريتا وهي تنظر إلى الوجه البيضاوي الجميل.. أنها ترى بوضوح وجهتي النظر.. في بعض الأوقات تبدو كارلوتا مشرقة ببريق من النضج وفي أوقات أخرى تستعيد طفولتها التي تركتها وراءها منذ وقت قريب جداً.. لكن لو فكرت باستريلا فمن اليسير أن تتصورها وقد أرهبتها الفتاة الأكبر سناً، والأكثر سيطرة.. وليست المرة الأولى التي تتذكر فيها غريتا ذلك الحديث الذي دار عند دونا ايزابيلا في اليوم السابق.. ربما كانت كراهية كارلوتا لأستريلا لها أساس.. واندفعت إلى القول: أنا متلهفة لمقابلة ميغيل.. متى سيعود؟

انتصبت كارلوتا ولامست أوراق زهرة: يجب أن يعود اليوم. تيو أرسله إلى هواروبا حيث مزرعة البن.

- هل أنت دائماً تخرجين معه للتنزه؟

أعطى رد الفعل التلقائي غريتا الرد قبل أن تجيب الفتاة.. استدارت كارلوتا وعلى خديها وردتين ثم شهقت قائلة: وكيف عرفت؟

أخبرتها غريتا بطريقة لطيفة واسترسلت: منذ أمس وأنا أريد تحذيرك لكنني خشيت أن تظني أنني أستجويك.

قالت كارلوتا بمرارة: لست أدري كيف عرفت.. التقينا وحدنا ثلاث مرات فقط وبعيداً عن العيون المتطفلة.

ضمت كارلوتا يديها النحيلتين معاً وزمت شفتيها بقوة.

- ماذا سنفعل؟ ستقول للكونت وسيبعد ميغيل.. أعرف أنه سيفعل. يجب أن نفكر في شيء ما، يجب أن نقول إننا التقينا صدفة.. وإن ميغيل كان يركب وحيداً و.. و..

سألتها غريتا بتوتر لاضطرابها: وهل منعك أحد من أن تركبي معه قبل الآن؟

هزت رأسها ورفعته دامعة: لا.. لكنني أعرف أنه من الحكمة عدم فعل هذا في السر.

- أسرار مثل هذه تتسرب دائماً.. لكنني حتى الآن لا أفهم ما دخل استريلا بالأمر.. ولماذا تزعج نفسها بالقول لدونا إيزابيلا؟

- لأنها شريرة.. وهي.. كيف تقولين؟ متسلطة. لكن دونا إيزابيلا وجدتي الكونتيسة، تأملان دائماً أن يتفق الكونت واستريلا ويوحدا العائلتين. ظننا أنه سيختار تيريستا إلا أنها تزوجت من غيره.. والآن صارت أرملة.. لم تعد ندري..

هزت رأسها وأكملت: ولهذا السبب تظن استريلا أنها تستطيع التدخل في شؤوننا، حتى أنها تدلله بأسماء لا يسمح لأحد أن يدعوه بها سوى الكونتيسة.

أطلقت غريتا تنهيدة ثقيلة تماثل تنهيدة كارلوتا.

- هكذا إذن.. هل ترغبين أن تخبريني شيئاً عن ميغيل؟

قالت كارلوتا بأسى: لقد أحببته سراً منذ سنتين.. وسأحبه للأبد.

لم يعد هناك ما يقال بعد هذا الحديث الموجز البليغ، ما عدا سؤال واحد ترددت غريتا في طرحه.. بعد لحظة تلقت الرد عليه.. فقد استدارت كارلوتا لتمسك بيد غريتا تهتف بتوسل: أرجوك.. هل

تساعديني؟ ميغيل فقير لكنه من عائلة طيبة.. ولن يسمحوا لي بالزواج من ميغيل بسبب المال الذي سأرثه عندما أبلغ السن القانوني.. وهو نفسه يدرك بيأس أنه لا يملك ما يقدمه لي وأن عليه أن يعمل للآخرين. لكنني إذا لم أتزوجه فلن أتزوج غيره، سأظل عانساً للأبد.

ابتسمت غريتا: عانساً للأبد؟ كيف يمكن أن تبقي عانساً للأبد وأنت بالكاد تبلغين السابعة عشرة؟

سرعان ما غطت الدموع عينيها السوداوين فتلاشى مرحها.. وقالت بلطف: طبعاً سأفعل ما أستطيع، لكن لا تطلبي مني أن أخدع خالك.. خاصةً إذا كان قد منعك من مقابلة ميغيل.

ـ لم يفعل هذا فهو لا يعرف.. ولا يعرف أحد حتى الآن.

ـ وهل أنت واثقة أن الكونت لن يتعاطف معك كما تتصورين؟ بالتأكيد هو، وليس استريلا، من يستطيع الحكم إذا كان ميغيل صديق مناسب..

شهقت كارلوتا بنفاد صبر، فابتسمت: أجل.. صديق.. هناك وقت طويل قبل أن تفكرا بالزواج.. لا يمكن أن تحرمي تماماً من الاتصال بالجنس الآخر.

ردت بيأس: قد يحصل هذا.. أنت لا تفهمين كيف نستسلم للتقاليد؟ آه.. لماذا لا تملك هذه العائلة روح التحرر؟ شخص لديه الشجاعة ليكسر القيد ويتحرر كما فعل الآخرون؟ لا زلنا نعيش أيام ما دونا إيزابيلا، فهذه ليست أيامنا.

صمتت غريتا. كان الصدق واضحاً في حديث كارلوتا.. وعلى الجانب الآخر كان هناك يأس مبالغ فيه.. فيبدو أن كارلوتا ربيت بلطف منذ مولدها.. تعليمها كان قاسياً لكن محمياً، ولم تواجه يوماً صعوبات الحياة مثلما تفعل الفتاة الإنكليزية المراهقة العادية.. لذلك فمن غير المحتمل أن تكون قادرة على إصدار حكم أو قرار لا ينذر بتحطيم

القلب. وقالت بهدوء: على أي حال أظن أن صداقتكما لن تبقى سراً، قلت لي إن ميغيل علّم كارلوس السباحة في السنة الماضية ولا شك أنكم استمتعتم بالإجازة سوياً.. عندما سُمح لميغيل أن ينضم إليكما كفرد من العائلة.

ـ هذا لا يكفي.. أريد الزواج منه.

سألت غريتا بجفاء: وهل يريد أن يتزوجك؟

كانت تؤمن أن كارلوتا تنعم في حلم يقظة مراهق.. نسجته حول السكرتير الشاب لخالها.

ـ طبعاً.. لكنه يعرف أن لا جدوى من طلب الإذن لزواجنا. ولو عرف أحد بهذا.. سيبعّد من هنا.

بدا الأمر وكأنه مأزق، فتنهدت ثم أعادت كارلوتا إلى درس الأدب الإنكليزي. لكنها لم تستطع إلا أن تشعر بالفضول تجاه شخصية ميغيل، الذي لا شك استعبد قلب الفتاة الاسبانية الصغيرة. لذا أحست بقشعريرة إثارة حين سمعت بأنه قد وصل ذلك المساء.

في البداية شعرت بخيبة الأمل عندما حانت لحظة مقابلتها له.. بدا ميغيل بجوار الكونت صغيراً لا قيمة له.. كان قصير القامة عكس الكونت ولا يملك وقفة الكونت المتعجرفة الواثقة.. عندما تعرفت عليه اكتشفت أنه يمتلك سحراً خاصاً قادر من خلاله أن يأسر قلب أنثى صغيرة.

كان ناعم الحديث، عيناه سوداوان رقيقتان كلاتيني حقيقي.. ابتسامته الجذابة تقنع أي امرأة أنها موجهة إليها فقط وليس لغيرها. كانت أخلاقه ممتازة وهندامه لا بأس به. لكن هل هو صادق؟ وإذا كان صادقاً، كيف سيفيد صدقه كارلوتا؟ بكل تأكيد هو ممثل شاب بارع وخبير.. ولم يكن في طلعته أي أثر للمحب المشتاق عندما تحدث إلى غريتا في النور الذهبي لمغيب الشمس في «الصالا» ذلك المساء.

لكن لا ينطبق هذا على كارلوتا.. كانت عيناها السوداوان تلمعان بنار داخلية، وكيانها كله يتهلل بالفرح. وأحست غريتا بموجة قلق وضيق.. إذا كان كل شيء بينهما على ما يرام كما قالت كارلوتا.. فلماذا لا تصرخ بسرها إلى العالم كله؟ القول المأثور: قلبها في عينيها، خطر ببال غريتا، وفي الوقت نفسه أحست بوجود شخص آخر.

فقد دخل الكونت «الصالا» مقطباً جبينه.. وبدا واضحاً أنه سيعلن استهجانه.

وباندفاع، بدأت غريتا تقول أول شيء خطر ببالها، تحاول وضع نفسها بين ميغيل وكارلوتا الشاردة العينين.

التقط ميغيل الإشارة فوراً ووجدت غريتا نفسها مدعوة معه لحفلة فلامينغو بصحبة بعض الأصدقاء.. ولم تستطع أن تفعل شيئاً سوى القبول وتحديد موعد في أمسية للأسبوع القادم.. لكنها لم تعرف أيهما كان الأكثر إحباطاً.. تعبيرات وجه كارلوتا المتألمة أم بريق الاستهجان المتعجرف الذي زاد من قتامة وجه الكونت وهي تستدير إليه؟

• • •

٤ ـ هل أعلنت الحرب؟

تقع مزرعة بيلار في أحد الوديان الغنية المثمرة التي تقسم السهل الساحلي الجاف. الطريق بالسيارة يستغرق أقل من ساعتين، مما أعطى غريتا انطباعاً حقيقياً عن الريف خارج المدينة.. وكان كارلوس متحمساً للغاية، وعين نفسه رئيس المرشدين.

صمتت كارلوتا منطوية على نفسها.. ترد بصوت منخفض حين يوجه الحديث إليها، لكن دون إظهار أي ترقب فرح بالعطلة أمامها. بدا أنها لم تغفر لغريتا تطفلها بالأمس، ومع وصول المجموعة إلى الهاسيندا واستقبال استريلا وتيرستا لهم، تسللت بعيداً بغير اعتذار.

قطبت دونا إيزابيلا قليلاً، وتنهدت غريتا.. وأجبرتها اللباقة أن تظل مع المجموعة حتى انسحبت دونا إيزابيلا مع صديقتها القديمة، وذهب كارلوس مع صبيتين صغيرتين إلى مكان ما مع بعض أقرانه. وتركت لتواجه حاجبي استريلا المقوسين بدقة.

قالت الفتاة الاسبانية: بعد قليل ستكون تيرستا معنا.. ولا داعي للقلق على كارلوس الصغير.. فقد زارنا قبل الآن.

هزت غريتا رأسها تشعر أنها ليست ضيفة على وجه الدقة.. وترقبت بأدب أن تقوم استريلا بالخطوة التالية.. كانتا تقفان على التراس المظلل المطل على مرج عشبي أخضر عريض تحده أزهار رائعة.. بينما أدخل السائق الحقائب إلى المنزل، وهدأ ضجيج وصول

www.freewity.com

الضيوف.

استدارت استريلا: بعد قليل ستأتي جوليتا لتريك غرفتك.. وإذا كان هناك شيء ترغبين به، ستهتم هي بذلك.

بدت الفتاة غاضبة.. ومرة أخرى لم تستطع غريتا إلا أن تهز رأسها وتتمتم بامتنان، كانت تسمع أصوات كارلوس ورفاقه تتهادى بجوار المنزل.. لكن الأولاد ابتعدوا عن النظر.. ترددت غريتا قليلاً ثم قالت:

- أين هي كارلوتا؟ ربما من الأفضل أن أجدها.

رفعت استريلا حاجبيها مجدداً: آه أجل اليوم تبدو غاضبة، أرجو ألا تكون صحتها متوعكة.

ردت غريتا بحذر: لست واثقة من هذا.

قالت الفتاة باستعلاء: إنها في مرحلة عمرية تجعلها سريعة التأثر.. وسوف تتصور نفسها تقع في حب كل شاب جذاب تقابله.

هتفت غريتا ببرود: لا أظن هذا.. وتذكري أنه لم يمر سوى شهران على فقدانها لوالديها.

قالت بصوت منخفض: وكيف أنسى؟ آه.. ها هي جوليتا.. سنراك في «الصالا» فيما بعد..

ولحقت غريتا بالخادمة الصغيرة إلى غرفة النوم المخصصة لها وقد أدركت أن حذرها من استريلا كان في محله.

لم تندهش عندما اكتشفت أن غرفتها كانت على مسافة بعيدة عن غرفتي كارلوس وكارلوتا، وأنها في مواجهة حرارة الشمس، وأنها مخنوقة لا هواء فيها. لا بأس، فلن تترك هذا يزعجها أبداً.. لن يدوم هذا أكثر من ليلتين. بسرعة غسلت وجهها ويديها ثم خرجت تبحث عن كارلوتا.. وكما توقعت، وجدتها ممددة على سريرها وبجوارها صينية مليئة بالبسكويت، وفي متناول يدها شراب مثلج.. التفتت نحو غريتا

ثم أعادت نظراتها الشاردة إلى السقف.

سألتها غريتا بنعومة: أتشعرين بصداع؟

- لا.

- هل يمكنني أن أفعل لك شيئاً؟

التفتت كارلوتا نحو غريتا: لا.. لماذا لا تأخذين قيلولة مثل غيرك؟ أنت دائماً تتجولين في أشد الأيام حراً.

ابتسمت غريتا: أنا لا أنام وسط النهار حتى ولو كان الطقس حاراً كالفرن.. ثم إننا وصلنا لتونا.. ومن غير اللائق أن أنام على الفور.

هزت كارلوتا كتفيها ولم ترد. بعد لحظة، جلست غريتا على حافة السرير وقالت بصراحة: ليس الأمر كذلك.. وتعرفين. لقد كدرتك ليلة أمس بمحاولتي مساعدتك. ألن تصدقي أنني أقول هذا لصالحك؟

جلست كارلوتا وقد تجهم وجهها بحسرة: لم يمض عليك هنا غير أسبوعان فقط وحددت موعداً مع ميغيل، ومن أول لقاء لكما.. هل هكذا ستساعدينني؟

دهشت غريتا لدرجة الضحك: آه.. لا! لو رفضت لكان الموقف أكثر تعقيداً في ظل وجود خالك.. ألا ترين؟ لقد عرف ميغيل على الفور أنني أساعد في التغطية.

قطبت كارلوتا، حاولت الاقتناع لكنها لم تكن واثقة: تغطية؟ لا أفهم.

- إنها تمثيلية قديمة، أو خدعة. إذا ارتبط شخصان بالحب، وحاولا كتمان الأمر فسينظاهران بالاهتمام بشخص آخر.. وميغيل لم يكن ينوي حقاً دعوتي للخروج معه إلى أي مكان.. لكن هذا حدث لأنك كنت تنظرين إليه بذهول.. وخالك كان يراقبك وتذكرت ما قاله استريلا عن نزهة ركوب الخيل.. هكذا.. حدث ما حدث.

- فهمت.. إذن ستتظاهرين مع ميغيل أن هناك علاقة بينكما كي لا

www.rewity.com

بشك خالي في أمرنا.

أحست غريتا بالحذر: ليس بالضبط.. كان هذا اندفاع مفاجىء ولا أفكر في إقامة علاقة مع أحد.. وليس ميغيل بكل تأكيد.

ـ ألا يروقك ميغيل؟

ـ إنه ساحر وجذاب جداً.. لكن لا يمكن أن أقع في حبه.

تنهدت كارلوتا تلف ذراعيها حول ركبتيها: إنه رائع.. ولسوف أحبه إلى الأبد.

ـ أجل.. لكن من الصعب أن يظل الأمر سراً لو بقيت كما ظهرت ليلة أمس.. لقد سمعت عن لغة العيون، لكنني لم أدرك أبداً مدى ما تقوله العيون.. على أي حال ليس هذا ما أردت قوله.. لدي فكرة.

بدا التفاؤل على كارلوتا: ماذا؟ فكرة بشأننا؟

ـ لماذا لا تأتين معنا إلى الفلامينغو؟

ـ لن يسمح خالي بهذا أبداً.

ـ وهل سألته؟

ـ لا جدوى من سؤاله.

ـ حسناً.. سأسأله أنا.

ـ سوف يرفض.. وقد يعترض على ذهابك أنت مع ميغيل.

ضغطت غريتا على شفتيها: من الأفضل له ألا يعترض. خالك لطيف جداً وساحر لكن عليه ألا يملي عليّ ما أفعله في وقت فراغي. وإلا سيتطاير الشرر!

ـ شرر؟

ضحكت كارلوتا مستعيدة مرحها: لكنك لا تعرفين خالي. إنه لا يحب أن يتحداه أحد.. ويغضب ويثور إذا خالف أحد أمره.

ـ عرفت هذا.. لكن مع كل احترامي له فإن وضعي مختلف عنك. طالما أؤدي عملي وأحصل على أجري، لا يمكنه انتقاد تصرفاتي

الخاصة.

قالت كارلوتا بثبات: هكذا تنظرين أنت إلى الأمر.. لكنك ستجدين أن الأمر مختلف.. فلا تقولي إنني لم أحذرك!

ـ لن أفعل.

على الفور صرفت النظر عن تحذير كارلوتا حيث أنه وليد خوفها الطفولي من خالها.. لكنها تختلف عنها.. هكذا قررت وقشعريرة السخط لا تزال حادة من جراء فكرة محاولة الكونت فرض هذه المقاييس والنظام والقيود عليها..

ربما لو فكرت بعمق أكثر فلن تصرف النظر عن الفكرة بمثل هذه السرعة.. لكن تصاعد صراخ الأولاد شغل اهتمامها.. وتقدمت نحو الأبواب الزجاجية المؤدية إلى الشرفة: هناك في الأسفل ثلاثة من الأولاد يتصارعون بشراسة للحصول على كرة كبيرة.. وهي تبتسم تقدمت، وتفرقت المجموعة الصغيرة تاركة كارلوس المنتصر ممسكاً بالكرة. وتراجع إلى الخلف ينططها قائلاً: أقول لكم لا! ليس هكذا.. بيليه يفعل هكذا! بهذه الطريقة!

صوب الكرة ثم ركلها بشدة رفعتها فوق رؤوس الأولاد وباقات الزهور الحمراء التي تحد المرج.

صاحت غريتا مهللة: أوليه!

ثم كبتت ضحكتها عندما سمعت صرخة من خلف باقات الزهور، وكذلك تلاشت ابتسامات الأولاد عندما ظهرت استريلا بقسمات وجهها السمراء القاتمة. بدت غاضبة جداً وهي تمسح بقعة عن فستانها العاجي الخالي من الشوائب.. وانفجرت بكلام غاضب لرؤيتها المتسببين بهذا.. ووقف كارلوس صامداً.. وجهه الصغير كله تحدي، وقال: ما قصدت إصابتك يا سنيوريتا بيلار.. لم نكن نعرف..

لكن استريلا تجاهلته.. فقد رأت غريتا على الشرفة، فنظرت إليها

www.rewity.com

صائحة: ألا تستطيعين السيطرة على هؤلاء الأولاد؟ أترين ماذا فعلوا؟ يا للعار! لقد تلوث فستاني! أنت..

قاطعتها غريتا بنبرة معتدلة: أنا متأكدة أنه لم يلوث بعد.. ولا أرى عليه أي أثر.

أشارت استريلا بيديها: ألا ترين؟ أنت لا تحاولين حتى رؤية شيء.. لماذا لا يذهبون لأسرتهم ليرتاحوا وقت القيلولة؟

تنهدت غريتا.. ربما تكون الكرة قد تركت أثراً من الغبار على ثوب استريلا.. لكن هل عليها أن تصبح هكذا؟ كان كارلوس ينظر إليها بقلق ولهفة والولدان الآخران ينسحبان ببطء من المكان.. وقالت بنبرة هادئة: لقد ناموا قيلولتهم.. ولن تتوقعي من ثلاثة أولاد أصحاء أن يعبثوا بأصابعهم طوال اليوم أنا واثقة أنهم فعلوا هذا عن غير عمد.. لقد رأيت هذا بنفسي.

تلاشت نبرتها الهادئة وهتفت بحدة وحزم: أنا واثقة أن بالإمكان تنظيفه.

- لن ينظف.. الفستان أفسد.. ولن أرتديه ثانية.

واستدارت بغضب: هذه غلطتك يا كارلوس.. سيعرف خالك بذلك وستنالون العقاب.. هيا ادخل إلى المنزل فوراً.

فجأة فقدت غريتا صبرها.. وهبطت السلم بسرعة: لا أظن هذا! إن ما حدث هو حادثة بالتأكيد! وأظن أنهم لم يعلموا بوجودك هناك. مع ذلك سيعتذرون لك.. وسأزيل الغبار بنفسي عن فستانك.. وعندئذ ينتهي أمر الأولاد!

تقدموا بإذعان أمام دهشة غريتا، وقدم كارلوس اعتذاره بتواضع واحترام، واعتذر الولدان الآخران مثله.. وشكت غريتا أن السخط يلمع في عيونهم السوداء، لكنهم عندما رفعوا نظرهم إلى غريتا اكتست وجوههم بالوقار التام.

لكن استريلا لم ترضَ.. ويبدا أنها ستنفجر مجدداً بنوبة غضب أخرى.. وتمتمت بشيء لم تسمعه غريتا، ثم ابتعدت بسرعة. حينذاك اقترب كارلوس من غريتا: هل ستطلب من تيو أن يعاقبنا؟ ما قصدت إيذائها يا سنيورينا تيرانت.

- أعرف هذا.. فلو أخبرته، سأقول له الحقيقة وأنا واثقة أنه سيفهم.

بدا كارلوس أقل قلقاً، وبعد فترة قصيرة عاد إلى طبيعته.. على عكس استريلا التي ظهرت وقد غيرت فستانها، وارتدت بذلة رائعة باللونين الأبيض والأسود، تعبيرات وجهها لا تخفي كراهيتها لرؤية غريتا.

كانت برفقة امرأة شابة نحيلة رشيقة لم ترها غريتا من قبل.. وهمست كارلوتا: هذه شقيقتها تيريستا.. ستجدينها ألطف من استريلا.. فالحزن زادها جمالاً.

كانت المرأة الشابة الحزينة العينين مختلفة تماماً في الأخلاق والتصرفات عن أختها، صوتها أكثر رقة، أكثر وقاراً وفي حركتها كياسة بغير عجرفة.

أحست غريتا بالدفء نحوها، وعلى الفور اكتشفت أن تيريستا هي السنيورا جورادو التي كان يجب أن تجري معها تلك المقابلة الشهيرة في لندن منذ أسابيع.

تذكرت تيريستا بحزن، رغم ابتسامتها: كنت متحمسة للغاية في ذلك اليوم.. كان أمامي فقط يومان في مدينتكم.. وأردت أن أرى الكثير من محلاتكم الرائعة.. وكانت تلك أول مرة لي في أوروبا منذ.. منذ.. زواجي.. أتفهمين؟

ردت غريتا بلطف: أجل.. أفهم.

- وبالطبع إنكليزيتي ليست متينة مثلكم.. وكنت أتساءل ماذا

www.rewity.com

سأقول لرامون عندما لم أجد الفتاة المناسبة.. فقد بشت منهن جميعاً.. لو أنني رأيتك قبلهن لوفرت على نفسي كل شيء بعد ظهر ذلك اليوم.. وما فكرت في الخروج وتركتك تحت رحمة رامون! هل سامحتني؟

- لا يوجد ما أسامحك عليه.. لم تكن مقابلته لي سيئة أبداً.

وضحكت غريتا.

وتلاشى المرح من العينين السوداوين تاركاً حزناً لا يفارق وجهها.

- لست واثقة لهذا الحد.. فالكونت يمكن أن يكون.. كيف تقولون؟ مخيفاً لمن ليسوا مقربين له. أحياناً أكون ممتنة لأنه ليس على رأس عائلتنا!

صمتت لحظة ثم واصلت بلهفة: لقد تحدثت كثيراً عن نفسي! هل أنت سعيدة هنا؟

أجابت دون تردد: أحب كل دقيقة تمر.

صفقت تيريستا بيديها ونظرت حولها: يجب أن نشرب شيئاً.. أين استريلا؟

كانت استريلا غير موجودة، وجاءت الخادمة الصغيرة من المنزل فطلبت منها تيريستا أن تأتيهما بالعصير، ثم التفتت إلى غريتا.

- لا تهتمي بشقيقتي! إنها في إحدى.. كيف تقولين؟ نوبات الغضب؟ لا بل نوبات كرامتها المجروحة.. لأنني لم أسمح لها بأن تتحكم في حياتي مرة أخرى.. الآن وضعي مختلف.. لقد سافرت لمدة ثلاث سنوات وعشت في كل أنحاء العالم مع جيراردو.. أما الآن.. فلسوف أعيش وحدي إلا إذا تزوجت مرة أخرى.

سادت لحظة صمت.. ثم وقبل أن تنطق إحداهما، ظهرت سيارة «ستايشن» كبيرة في الطريق الداخلية.. وجلست تيريستا، وركض كارلوس مع صديقيه الصغيرين في الطريق ليستقبلوا الرجل الكبير

المريض الكتفين الذي خرج من سيارة «الستايشن».

استرخت تيريستا وقالت: إنه سنيور سكوفيلد.. جارنا.. لكن مزرعته.. آه.. أكبر من مزرعتنا ثلاث مرات.. إنه..

ثلاثت كلماتها مع تقدم الأولاد وبدا الوافد الجديد شديد السمرة، لطيف التكاوين، لوّحت الشمس شعره الأشقر فبدا كالذهب.. وسأله كارلوس: هل ستذهب اليوم إلى الكوريدا يا سنيور سكوفيلد؟

أجاب الرجل الأشقر: سنذهب جميعاً إلى الكوريدا أميغو.

وتغيرت ابتسامته لرؤية غريتا ورفيقتها: مرحباً يا تيريستا.

كادت غريتا تصيح.. أنت إنكليزي! لكنها منعت نفسها وانتظرت حتى ردت تيريستا تحيته وقدمتهما لبعضهما، وأطلق كابل سكوفيلد شهقة الدهشة بدلاً منها ثم أمسك يديها: كان ينبغي أن أعرف بمجرد نظرة إلى هذه البشرة.. لقد سمعت أن الجالية البريطانية هنا زادت واحداً.. والآن من أي منطقة؟ دعيني أخمّن؟.. لندن؟

ردت مبتسمة بسعادة: سوراي.

- مهما يكن فلا زلنا جيران.

فجأة أصبح النهار أفضل.. لكن شيء واحد ظل يقلق غريتا.. وبعد قليل أفرغت قلقها إلى كابل سكوفيلد خلال لحظة بقيا فيها وحدهما. قالت مترددة: إنها «الكوريدا» التي أخاف منها.

- الكثير من النساء الإنكليزيات يخفن منها.. لكنك لست مضطرة للذهاب.

قالت ببطء: لم يكن لدي فكرة أنها على برنامج اليوم.. كنت أظن أن هناك فقط حفلة صاخبة.. رقص وطعام ومرح.

ابتسم: أرى أن أمامك الكثير تتعلمينه بعد. حين نعود من الكوريدا سيكون هناك حفلة ضخمة فيها غناء وصخب، وسيستمر هذا إلى ما بعد منتصف الليل.

www.rewity.com

قطبت: أجل.. لكنني أتمنى الهرب من مصارعة الثيران تلك.. إنها فظيعة.

صمت، وأدركت أنه لا يستطيع فعل شيء لمساعدتها.. ولن تغامر وتثير غضب أحد باعتراضها على ترتيبات المضيفين.. ثم إنها مضطرة إلى مرافقة كارلوتا وكارلوس.

الجميع يتأهب الآن للذهاب.. بعض الضيوف صعدوا لسياراتهم، وانطلقوا.. وكارلوس وأصدقاءه كانوا ينتظرون بملل بعد أن تلقوا وعداً بالركوب في سيارة كايل. ولم يعد في وسع غريتا أن تفعل شيئاً سوى كبت هواجسها واللحاق بكارلوتا في السيارة.

امتلأت «بلازا دو توروس» بالإثارة الصاخبة وكانت الموسيقى تصدح من مكبرات الصوت موسيقى عسكرية حماسية تشبه الألوان الصارخة لبذلات المصارعين، وآلاف الأصوات ترتفع صارخة بالإضافة إلى رائحة مختلطة من الغبار والأجسام البشرية الحارة والحيوانات، تزكم الأنوف.

كان كايل سكوفيلد إلى جانب غريتا قبل أن يفرقهما الزحام الخانق عند المدخل. وقال لها بصوت منخفض: هذا نوع من الإثارة عليك أن تجربيه ولو مرة واحدة في حياتك.. كي تكوني قوية قادرة على المقاومة.. أليس كذلك؟

ـ أنا لا أفكر بالثبات أو الهزيمة.. بل أفكر بالثور.

وضع يده بلطف بين كتفيها يحثها على صعود السلم.

ـ سأجلس إلى جانبك وأمسك بيدك لو صار المشهد مفزعاً.

لم يحدث الأمر بهذا الشكل فبعد أن جلس الجميع في مقاعدهم جلست غريتا في صف طويل من الوجوه التي لم تألفها.. ومالت إلى الأمام لترى أن كايل جلس بين كارلوس وتيريستا على بُعد خمسة مقاعد منها. فجأة توقفت الموسيقى.. وصمت الجمع وحُبست الأحاسيس..

ثم ركض الثور إلى منتصف الدائرة الرملية الصفراء الكبيرة.

تعالى صوت تنهيد ألف نفس كان محبوساً.. ومرت في نفس غريتا موجة رعب غريبة يخالطها الذهول، بينما كان المخلوق الضخم الأسود يستدير ليواجه جلاده.

وبدأت لعبة الرداء الأحمر والأصفر.. وتصاعدت حماسة الجماهير.

قبل أن تستقر الطعنة التالية في ظهر الثور لتشله، عرفت غريتا بارتجاف أن عليها أن تخرج من هنا وإلا ستبدو كالبلهاء أمام الجميع. وسرها أن تكون قريبة من نهاية الصف، فوقفت وتسللت من أمام سيقان جيرانها إلى أن وصلت المدخل الخارجي، لتصل إلى خارج البلازا الهادئ.

ثم توقفت هناك لتأخذ نفساً عميقاً وتنظر حولها قبل أن تسير ببطء باتجاه موقف السيارات.. كان رأسها يضج بتأثير الحرارة والصوت وكراهيتها لهذه الرياضة.. رفعت يدها إلى غطاء الرأس المربوط إلى الخلف بشدة وحررت شعرها، ثم تنهدت عندما أحست بالحرية التي أعطاها لها شعرها الأشقر وهو ينسدل على كتفيها وحول وجهها.

خففت سيرها إلى أن وقفت.. مسألة ماذا ستفعل الآن لم تخطر ببالها بعد.. لم يلحظ أحد من الجماعة خروجها السريع، وأحست بالامتنان عندما أصبحت وحدها بعيداً عما يجري في الداخل.. لكن قطع عليها ذلك صوت وقع أقدام قادمة وسماع صوت لم تتوقعه أبداً: يا سنيوريتا.. هل أنت مريضة؟

استدارت لتواجه الكونت، وشهقت: أنت.. كنت أظنك بعيداً!

بدا عليه الضيق: كنت، لكن زميل العمل استدعي لأمر شخصي طارىء. أنت لم تجيبي على سؤالي.. لقد رأيتك تغادرين الكوريدا.. هل أنت مريضة؟

www.rewity.com

ـ لا.. بل مجرد غثيان.. لم أستطع تحمل ما يجري لحظة أخرى.. هذا عمل غير إنساني. ولا أدري كيف يستطيع أي شخص أن يجلس ليتمتع ويهلل لمثل هذه التسلية البربرية.. رياضة!

قطب جبينه: تمهلي لحظة، أتتكلمين عن الكوريدا؟

ـ وما غيرها؟ أظن..

ـ أظنك لا تعرفين شيئاً أبداً لذلك لا يمكن لك إدانة شيء هو أكثر من رياضة.. إنه فن ورمز لتفوق الإنسان وشجاعته.

لم تحاول إخفاء اشمئزازها وسخريتها: شجاعته؟ أية شجاعة؟ أتعني أن غرور الرجل تفوق؟

ـ وهل تجرؤين على مواجهة إحدى هذه المخلوقات؟ ليس هناك أي ادعاء، والثور لا يخسر على الدوام.. والكوريدا قد تعني الموت يا سنيوريتا.

صاحت: ولهذا أكرهها.

ـ ألا ترين أن الناس يشاهدونها بذات الرهبة التي يشاهدون بها السيرك؟.. وفي السيرك دائماً تلك المخاطرة فقد يتحطم لاعب البهلوانيات فوق الحلبة. إنها الإثارة، الجاذبية، لكن القليل من الناس يعترفون بهذا.

ـ لقد أعطي الإنسان هبة ثمينة هي المنطق يا سيدي الكونت.. بإمكانه أن يقرر حماية حياته أو يخاطر بها.. لكن الحيوان لم يعط مثل هذا الخيار، إنه يقاتل أو يقتل لمجرد أن ينجو ويعيش.. وإذا اختار الإنسان أن يعرضه للأذى، فلا خيار عنده حينئذٍ سوى الدفاع عن نفسه.. ويسمي الإنسان هذا رياضة؟ أنا أكره العنف والمعاناة أكانت لبشر أو لحيوان، وهناك ما يكفي منها في العالم دون أن نتعمد حدوثها.

وبدا الجو بينهما مشحوناً بعداء غريب.. من بعيد سمعت أصوات الناس.. وبغصة ألم كليل عرفت ماذا تعني.. الثور.. مات!

أحست بيدين خفيفتين حازمتين على كتفيها.. وأدارها الكونت بيطء لتواجهه وقال بهدوء: كفتاة إنكليزية باردة، أنت شديدة الحساسية.. أليس كذلك؟

لم تستطع الرد أو النظر إلى الأعلى كي لا تواجه نور الشمس.. الآن تلاشى كل غضبها تاركاً الحزن لإحساسها بالغربة في مجتمع غريب.. كان هناك فقط طيف الرجل الذي يعلوها، وربطة العنق البنية القاتمة الحريرية والبارزة أمام قميصه الحريري اللؤلؤي اللون.. أمسك ذقنها بيده. تفرس في الوجه البيضاوي الصغير.. اللون المشمشي يصبغ استدارة خديها الناعمين، وبإصبع واحد طويل مسح نقطة وحيدة لامعة كالألماس، تسللت من تحت الرموش المتسدلة.

ـ أظن أن في عينك شيئاً.. شعرة أو غبار.. ربما تزول لو مسحتها بهذا المنديل.

القماش الناعم الأبيض مسح بنعومة تحت رموشها، فزالت القطرة اللامعة.. طرفت بعينها ورفعت ذقنها بكبرياء.

ـ شكراً لك يا سنيور.. لقد زالت الآن.

أحنى رأسه قليلاً إلى جانب واحد: يسرني هذا. أظن أن الوقت غير مناسب لمتابعة الحديث عن الكوريدا.. اسمحي لي يا سنيوريتا.

وضع يده تحت مرفقها وأدارها نحو الخط الطويل من السيارات المتوقفة.. وسارت إلى الأمام بتلقائية، ثم توقفت لترمقه بنظرة حائرة.

ـ لكن الآخرون يا سنيور؟ ألن ننتظرهم؟

ـ لا أظن، سيمضي وقت طويل قبل انتهاء الكوريدا.

ـ لكن، الأولاد.. يجب أن..

ـ لقد أعطيت تعليمات لميغيل أن يظل معهم ضمن المجموعة، فلا تقلقي يا سنيوريتا، سيكون كل شيء على ما يرام.

ـ ألا ترغب في العودة إلى الكوريدا؟ لقد كنت هناك، أليس كذلك؟

www.rewity.com

ـ أنت تعترضين كثيراً!

أخرج مفتاحه ليفتح لها الباب وأدخلها إلى المقعد الأمامي.

هدرت الليموزين الأميركية الفخمة وبدأت البرودة اللذيذة لمكيفها تلامس بنعومة وجه غريتا الساخن.. تساءلت أين سيذهب بها؟ واختلست منه نظرة خفية، لكن جانب وجهه البارد المتعجرف كان بعيداً يركز على قيادة السيارة.. وظلت صامتة.

لا بد أنها تنهدت، إذ قال: هل تحسين أنك أفضل حالاً الآن؟

استرخت وعلى شفتيها ابتسامة قلق: أجل.. شكراً لك.

لماذا يملك القدرة على سلبها مقاومتها بسهولة؟ هذا غير عادل!

بعد فترة وجيزة جداً، لاحظت معالم المدينة الخارجية وتساءلت عما إذا كان سيعود إلى الڤيلا.. لكنه انطلق بالسيارة مباشرة إلى وسط المدينة ليتوقف أخيراً خارج فندق «بوليڤار» حيث التفت إليها وفي عينيه تسلية شيطانية.

ـ أظن أنني لاحظت بداية غثيان بعد ظهر اليوم، وهي حالة يجب أن أتعامل معها.

عضت شفتها: آه..

وأخذت تتطلع إلى واجهة الفندق الرئيسي في ليما، لم تحس أنها في حالتها الطبيعية.

ـ يا سنيور.. أقدر لك اهتمامك.. لكن.. أحس أنني لست أنيقة لأدخل إلى هنا.

تفرس بها بعينين متعجرفتين: كلام سخيف.. تبدين فاتنة.. وأنا واثق أن مرآة حمام النساء لن تخالفني الرأي.

لم تقتنع بتلك الشهامة اللاتينية، ونزلت من السيارة.. رافقها الكونت إلى الداخل بوقار كأنها أميرة، ثم توقف: سأنتظرك في قاعة الاستقبال الرئيسية.. لكن أرجوك، لا تجادلي تلك المرآة كثيراً يا

سنيوريتا.

تصاعدت الإثارة في داخلها.. وإن بدا على مظهرها الهدوء.

وعندما وافته مرة أخرى، كانت قد نسيت كل قلقها وترقبها.. وكأن الكونت يملك عصا سحرية لينقلها من أميركا اللاتينية، الشديدة الحرارة والرطوبة، إلى فندق إنكليزي متخصص بتقديم الشاي، برخامه الأبيض والزهري، بينما الكونت في أفضل حالاته، أنيق، يُحسن ضيافة زواره ومرافقتهم.. كما يجب أن يكون..

كانت غريتا تحس بالرضى عندما حان موعد الخروج، عيناها تبتسمان وهو يضعها في السيارة وعلى شفتيه ضحكة خفيفة. وجلس في كرسي القيادة وانطلق بالسيارة حتى غادرا ضواحي المدينة.

كسر الكونت حدة الصمت برغم تركيزه على قيادة السيارة، وهتف بهدوء: الآن وكما ترين فنحن لا نهمل الوجه المريح للحياة.

أجابت والبسمة لا تزال في عينيها: أجل.. وأرى كذلك يا ستيور أنكم لا تفعلون شيئاً ناقصاً.

ـ ناقص؟ كيف يا سنيوريتا؟

ـ بأنصاف حلول، أنتم لا تفعلون شيئاً بطريقة عفوية كما نفعل نحن أحياناً، أو تقبلون بنصف شيء لمجرد أنه أسهل من الرفض.

ـ آه.. تعنين أننا أكثر إيجابية في ردود أفعالنا وأكثر واقعية في مجابهة الأمور؟

ـ ليس بالضبط.. إيجابيون، نعم.. واضحين.. لا.

الوضوح آخر ما يمكن أن تصف به رامون دوغارسيا اي مونتيلياس، اللغز.

بدا الصمت داخل السيارة وكأنه ينتظر غريتا لتكسره.. فجأة لم تعد متأكدة من نفسها.. هل أغضبته؟ لقد كانت جريئة جداً في حديثها معه بعد خروجها من الكوريدا. أدركت ذلك عندما استعادت في ذاكرتها ما

www.rewity.com

جرى.. لكنه بدا متباعداً، لا غاضباً.. ولقد أخذها لشرب الشاي، ولم تتغير تصرفاته اللاتقة معها.. إلا إذا كان يريد أن يلقنها درساً في الأخلاق؟

التفتت تنظر إلى جانب وجهه المتجهم بصرامة.. تتوقع أن تقرأ ما يفكر فيه.

رفع حاجبه رداً على نظرتها الصامتة: إذن لقد فهمت أخيراً طباعنا؟

نظرت أمامها نحو الطريق.. أحست بارتياح غريب وقالت بحذر:

- لا.. لا يمكنني الادعاء أنني أفهم أحداً. هذا لا يتم بعد وقت قصير يا سنيور.

- هل تفكرين فينا بهذا الشكل؟ مجرد معرفة.

تغيرت لهجته.. وأدركت أنها لم تتوهم تلك اللهجة المتشددة التي اختلطت بنبراته، وقالت بسرعة: أنا.. لم أحدد شيئاً.. أو شخصاً بعينه. وبكل تأكيد ليس أنت يا سنيور.

خيم الصمت مجدداً.. وأبطأ الكونت سرعته قبل أن يعلق ببرود: أجد أن حديثك هذا مثير للاهتمام.

كتمت الرد الفوري وترقبت.. فتابع: هذا يؤكد على شيء لطالما شككت به في الإنكليز. أنتم لا تلزمون أنفسكم أمام غريب أو شخص تعرفونه، ما عدا في حالة الغضب.

ردت تدافع: أظن أن ذلك سلوك عالمي، ولا يخصنا وحدنا.

- فلنترك الوجهة العالمية بعيدة عن الموضوع في الوقت الحاضر، ونحصر النقاش بيننا.

- أنت تعتبرني جريئة في الحديث يا سنيور كونت.. أليس كذلك؟ وأنت تحاول أن تخبرني بلباقة ألا أعطي رأياً في لحظة غضب، بل أكون أكثر تعقلاً بسبب ما حدث بعد ظهر اليوم.

صمتت لحظة وواصلت بحزم: حسن جداً.. أنا لم أقصد توجيه

إهانة شخصية لك، لكنني لن أغيّر رأيي.

لم يرف خط واحد من خطوطه الارستقراطية.

- سيخيب أملي فيك لو غيرت رأيك.

أجفلت: يخيب أملك؟ لا أفهم.

- إنني أكره النفاق بقدر ما أحترم الصدق.. لذلك، ومع أن وجهات نظرك لا تحتوي على الصدق الكامل، إلا أنني أدرك مدى صدقك في رغبتك تجنب الإهانة الشخصية.

صاحت: آه.. هذا صحيح! المسألة مسألة مبدأ.. أنا..

- أجل.. مبدأ الحياة.. خاصة مَن يتعرضون للظلم.. هذا هو الشيء الوحيد الذي يثير غضب أكثر الإنجليز برودا.

قالت بحرارة: آه لا..! أنا واثقة أننا لا نمارس الظلم! وأنا واثقة أن هذا كلام مبالغ به.

- حقاً؟

سألت بلطف: هل هذا إعلان للحرب يا سنيور؟

- هذا ليس أكثر من إعلان لتفاهم أفضل! على أي حال يبدو لي أن هذا يسلّيك.

- في الواقع لا.

بدا لها أن اهتمامه يتركز على قيادة السيارة فسألته: لقد كدنا نصل.. أليس كذلك؟

- بعد بضعة أميال، ثلاثة على الأكثر.. لماذا؟ هل هناك شيء يقلقك؟

- أبداً.. لكنني أرجو ألا يسيء أحد الظن بتصرفي في هذا اليوم.

- لأنك هربت من الكوريدا؟

- كان من الأفضل أن أرجع أو أنتظر عودتهم.

قال ببرود: لقد تدبرت أمر هذا.. وخطر ببالي كم كنت مهملاً.

www.liilas.com

سألت بدهشة: بأية طريقة؟

ـ نحن لم نتفق رسمياً على مواعيد راحتك.. كان يجب أن تذكريني.

تذكرت: أجل لقد تركنا هذا معلقاً.. وكان يجب أن نتفق عليه بما يلائمنا معاً.

قال بحزم: من الأفضل ألا نترك هذا الأمر معلقاً.. متى ترغبين في الحصول على الراحة؟ في نهايات الأسبوع؟

ـ إذا كان ملائماً.. لكنني أعرف أن لدي كثير من وقت الفراغ ومرافقتي لكارلوتا ليست عملاً أبداً.

ـ مهما يكن، فأنا أصر أن يكون لديك إجازة محددة تشعرين فيها بالحرية التامة. وعندما نعود إلى ليما سنحدد جدولاً زمنياً لذلك.

قالت: شكراً لك.

ثم نسيت الرسميات: لكنني لا أعترض أبداً أن يكون وقت الراحة مرناً يا سنيور.

ـ مرناً؟

ـ أعني.. لو أن هناك حاجة لي في نهاية أي أسبوع، سأكون سعيدة بالتآلف مع الترتيبات.. وبشكل مماثل، لو احتجت لوقت راحة في منتصف الأسبوع سأطلب منك ذلك وأخالف الروتين.. وقد لا يحدث هذا.. لكن الاحتياط واجب.

ـ الاحتياط واجب في أن تكوني قد شكلت لنفسك صداقة خاصة في ليما؟ أجل.. أفهم هذا تماماً يا سنيوريتا.

صمت قليلاً، واتحرف بالسيارة ليدخل بها في الطريق الريفي الضيق المؤدي إلى مزراعة بيلار: لكنني مضطر أن أذكرك، قبل أن تمضي قدماً بطريقتك البريطانية الطائشة في السعي إلى صداقات جديدة.. فالدعوة إلى الفلامينغو التي اقترحها سكرتيري.. كان من الحكمة أكثر لو لم

تقبليها.

هزت صدمة باردة غريتا من الداخل: ألا توافق عليها يا سنيور؟

قال بنبرة حادة: كنت أدرك تماماً أنك تعتبرين القبول بالدعوة من غريب، أمر لا غبار عليه.. لكن ليس مع ميغيل.. وهنا.

ـ وما خطب ميغيل؟ أنا واثقة أنك لا توظف أي شخص سيء السمعة.

ـ أنا لا أتحدث عن ميغيل بصفة شخصية.. بالطبع أخلاقه ليست موضع سؤال، لكنني أحاول أن أقول لك إن ما هو مقبول تماماً في بلادك أو حتى هنا مع شخص من جنسيتك أو من جنسية أميركية، غير مقبول في مجتمعنا.. نحن لا نحترم الفتاة الشابة التي تقيم علاقات عابرة مع الجنس الآخر.

تنهدت: أجل.. أعرف.. لقد حذرتني دونا إيزابيلا من هذا أيضاً.

التفتت إليه مترددة، ثم قالت: أقدر لك اهتمامك بي يا سنيور.. لكن إذا لم أختلط بالناس وأعرفهم كيف سأرى البلاد على حقيقتها وأفهم أهلها؟ أريد أن أعرف أكثر مما يعرفه السائحين.. وأنا أستطيع العناية بنفسي يا سنيور.

ـ حقاً؟ أتساءل؟

كان في نبرته عدم تصديق أدهشها.. لقد بدا قلقاً حقاً. والفكرة جعلتها تنسى قدرتها التي اكتسبتها بجهد على إخفاء ما بنفسها.. وقالت مسرعة:

ـ آه.. أجل.. لا تقلق! لدي إحساس غريزي بتعلق بالناس، وطالما أنا أتبعه سأكون على ما يرام. لم يخذلني هذا الإحساس سوى مرة واحدة في حياتي..

قال بخشونة: وكان رجلاً بالطبع هو سبب هذه العزلة؟

زمت شفتيها بمرارة: وكيف عرفت؟

www.rewity.com

ثم استرخت باستسلام: هكذا لن أكون عمياء في المرة القادمة.

قال ببرود: لن أكون واثقاً هكذا لو كنت مكانك يا سنيورينا.. فهناك حكمة في المنطق، لكن نادراً ما توجد حكمة في الأحاسيس.

تنهدت والتزمت الصمت، تفكر بحزن في كارلوتا والوعد الذي قطعته لها، إنه أصعب مما تصورت..

قالت بتهدج: أترى يا سنيور.. إنني أفكر في ميغيل كجزء من الحياة هنا.. وكنت في منتهى السعادة عندما اقترح مرافقتي إلى حفل الفلامينغو.. وأنا أتطلع للمناسبة بشوق.

ـ وهل تهتمين حقاً بموسيقانا ورقصنا يا سنيورينا؟

ـ بل أحبهما!

ـ ولماذا لم تذكري هذا لي؟ كنت وضعت لك الترتيبات لزيارة الفلامينغو.. وكنت سأرافقك بنفسي.

أحست بقشعريرة سعادة تسري في جسمها: أنت يا سنيور؟ وكيف لي أن أسألك؟ كنت سأحطم التقاليد مجدداً وبغير قصد.

قال بعجرفة: الأمر يختلف في هذه الحالة.. وعليك الحذر في المستقبل عند قبول الدعوات الخاصة.

تقبلت قوله بخضوع لدهشتها وهزت رأسها الصغير بالموافقة، قبل أن يخرج من السيارة.

كانت الظلمة قد تسللت دون أن تشعر بها.. وكانت الإنارة تلمع في كل الحديقة.. بعضها في أغصان الشجر، والآخر معلق كعقد فوق البركة.. كانت الأنوار تعطي سحراً خاصاً لليل تحول صمته وصمت الحدائق المهجورة إلى فردوس رومانسي. وأفلتت منها تنهيدة صغيرة، بينما وضع الكونت يداً ثابتة تحت مرفقها ليساعدها على النزول من السيارة.

ظلت يده دافئة مرشدة وهو يسير بها نحو المنزل.. وفجأة أحست

بتضارب اندفاعات غريبة. كانت تتمتع ببساطة بهذا التقارب الحميم المبهج مع رجل أثبت لها مع الأيام أنه جذاب للغاية.. انتظرت حتى ابتعدا عن الظلال تحت الأشجار ووصلا إلى الشرفة، ووقفت: يا سنيور..

ـ نعم؟

تفرست في أسارير وجهه البعيدة عن الضوء: كنت أتساءل هل لي أن أطلب منك منّة يا سنيور؟

ـ هذا يعتمد على طبيعة تلك المنّة.

ـ بشأن الفلامنغو.. أتساءل، هل بإمكان كارلوتا المجيء معي؟

حبست أنفاسها تتساءل عما إذا كانت مخيلتها تصور لها أم أن عيناه قستا فعلاً باستهجان. ثم رأت أسنانه البيضاء تلمع وهو يبتسم: أظن أن هذا ممكن ترتيبه.. خاصة وأن لدي كذلك طلب أطلبه منك.

أحست بارتياح لم تتوقعه: أنا؟

وضحكت بنعومة: شكراً لك.. وطبعاً!.. أي شيء تطلبه.. طالما لا يشمل هذا اصطحاب كارلوس إلى مصارعة الثيران!

ـ لا.. لا علاقة لطلبي بالكوريدا.

نظر إلى وجهها الذي لا يخفي سروره، وتلاشى المرح من أساريره.. لامس ذراعها مشيراً إلى ضرورة دخولهما إلى المنزل، قائلاً: بإمكان طلبي أن يتأجل قليلاً.. لكنني أظن أن الفلامنغو سيلقى إعجابك يا سنيورينا.

أضاف بنبرة فيها سخرية هادئة: وربما يثبت أن له ميزة خاصة أكثر من مهارة مصارع الثيران.. ومن مساوىء أسلافي القدامى!

* * *

www.rewity.com

٥ ـ تعلمت الدرس

كان ميغيل أول من قابلهما حين دخلا الصالة الخارجية.. فظهرت عليه الدهشة ثم ارتبك وأسرع إلى الأمام: يا سنيور لم نكن متأكدين ما إذا كنت.. لكنني سأخبر سنيورا بيلار بأن..

أوقفه الكونت بإيماءة قصيرة: لا حاجة لذلك! شكراً يا ميغيل..

التفت إلى غريتا وهز رأسه بإيماءة تعرفها الآن جيداً، لتتحرك دون كلام إلى جانبه نحو غرفة الطعام..

كان هناك حديث طويل مرح في الغرفة المكسوة الجدران بالخشب الأسود اللامع.. كان هناك ما لا يقل عن خمسة وعشرين شخصاً يتجمعون حول طاولة طويلة مصقولة تلمع بالفضة والكريستال.. وأحست غريتا على الفور بالأصوات تتوقف، والعيون تتجه إليها وهي تدخل.. وبشكل غريزي أحست أنهم لاحظوا أنها ترتدي الفستان المرجاني بغير أكمام، ذلك الذي كانت ترتديه في الكوريدا، والكونت بالبذلة الخفيفة.. ولو أنه أحس بأي شيء، فهو لم يسمح بأن يزعجه.. قادها بحزم إلى حيث تجلس دونا ايزابيلا ومضيفتهم دونا بيلار.

أخذ يد كل واحدة منهما بدورها يرفعها إلى شفتيه مبتسماً ابتسامة ساحرة لا تقاومها أنثى. وقال بنعومة: ألف عذر! سوف تسامحانا على وصولنا متأخرين. لكن السنيورينا كانت متضايقة في الكوريدا، فكان من الضروري أن نسعى إلى الهدوء لبعض الوقت. وهي الآن آسفة جداً

لمقاطعتنا لكم بملابسنا هذه.

أحنى رأسه وضاعت كلماته الأخيرة في زحام إجابة السيدتين معاً.. وبدا عليهما تعبيرات الاهتمام الحقيقي. وهما تحتجان على اعتذاره وتستديران إلى غريتا لتبديا الحزن على انزعاجها، والسبب بالطبع هي الحرارة والأصوات. فالسنيورينا الصغيرة لم تعتد بعد على طقسنا.. وهل هي واثقة أنها بخير تماماً الآن...؟

كان كل هذا غامراً وشعرت غريتا وكأنها مخادعة.. على أي حال لم يكن هناك ما تفعله سوى الابتسام والشكر لهما ثم أخذت مكانها المخصص لها على المائدة.

بعد تبادل حديث قصير مهذب مع جارها ناحية اليسار، صمتت غريتا.. فلا يزال أمامها الكثير لتفكر فيه وهي تسترجع أحداث اليوم..

ـ أنت هادئة جداً!

أجفلها صوت الكونت: آسفة يا سنيور.. كنت أفكر.. هل قلت شيئاً؟

ـ لا... لا تعتذري، إنه تغيير منعش أن يجد المرء امرأة تعطي الصمت حق قدره!

أحست بلون السعادة الدافىء يتصاعد إلى وجهها، ونظرت إلى كأسها.. فقال: فاكهة؟

ترددت أمام سلة الفاكهة المكومة التي قدمها إليها، تتطلع بعجب إلى ما هو غريب بين العنب والخوخ والتفاح الأحمر المألوف لها. واسترسل قائلاً بوقار: جربي «تشيريمويا» فلها لب أبيض شديد الحلاوة، أو هذه «الغراناديلا» إنها ثمرة «زهرة الآلام».

أجفلها إحساسها بكلمته فاختارت التشيريمويا لتكتشف أنها كما قال بيضاء ولذيذة للغاية.. وطيبة المذاق كثيراً.

أخذ الكونت خوخة، يقشرها ببراعة بسكين بجوار طبقه، ووجدت

www.rewity.com

نفسها مرة أخرى تراقب يديه.. توقفت الأصابع، وشيء ما رفع نظرها.

كان في العينين السوداوين الفاحصتين ما صدمها.. أجبرت نفسها أن تبتسم.

ـ أنا.. أنا لن أستطيع تقشير خوخة هكذا.. دون أن أستعم بعصيرها.

قال متسلياً: على الرجل ألا يسمح لنفسه أن تسيطر عليه فاكهة كروية كهذه.

ابتسمت ومدت يدها بسرعة إلى تفاحة. كان التعامل معها سهلاً، ورفضت بحزم أن تترك نظرها يعود إلى فلكه المثير.

عندما انتهت أخيراً وجبة الطعام الطويلة كانت غريتا مشدودة بأحاسيس رائعة مترقبة، وارتجف قلبها بقليل من التوتر مع وقوف الكونت حين وقفت، وسحب لها الكرسي إلى الوراء.

سأل: هل سترقصين يا سنيوريتا؟

ـ أجل.. بعد أن أغيّر ملابسي وأتأكد من وجود كارلوس في فراشه بأمان.

أومأ برأسه: حتى ذلك الوقت.. يا سنيوريتا.

وانتظر حتى مرت به قبل أن يلتفت لضيف آخر.

كان وجه غريتا مشرقاً وعيناها لامعتان عندما واجهت المرآة الصغيرة في غرفتها.. كل شيء سيبدو رائعاً.. كان ينبغي ألا تشك لحظة واحدة في قرارها القبول بالعمل.. لم تخذلها أحاسيسها هذه المرة ولن تجد صاحب عمل يتميز باللطف واللباقة مثله مع أن فيه شيء من التسلط والتحكم في بعض الأحيان.. كان العيب الوحيد هو استريلا.. والحمد لله أنها ليست فرداً من عشيرة غارسيا!

بسرعة ارتدت فستاناً أبيض من «القوال» على ياقته تطريز فضي، واسعاً ناعماً كالضباب.. يبدو أن الكونت سوف يرقص.. وستكون

تجربة رائعة أن ترقص في الهواء الطلق ليلاً وتحت النجوم، وهذا شيء نادراً ما يسمح به طقس انكلترا.. ترى كيف يبدو الكونت كرفيق رقص؟

عليها أولاً أن تجد كارلوتا.

تناهى صوت الموسيقى في الليل وامتزج بأريج الورود البيضاء التي تملأ القاعة الكبيرة وهي تهبط السلم.. تمتزج مع دخان السجائر المتصاعد من باب «الصالة» المفتوح حيث يجتمع بعض الرجال.. وترددت خطوات غريتا قليلاً، بينما التفت كثير من الرجال ليراقبوا تلك الفتاة النحيلة الذهبية الشعر التي بدت وكأنها تطفو وسط سحابة فضية بيضاء نحو الأبواب العريضة المفتوحة عند الشرفة.

كان يوجد عدد من الراقصين فقط.. بينما كان الآخرون يقفون، أو يجلسون في حديقة التراس.. تحت أضواء المصابيح، رأت جسد الكونت الطويل، في بذلة سهرة بلون الكريم وبنطلون أسود أنيق بدا وكأنه يزيده طولاً. كان يتحدث مع تيريستا واستريلا.. عندئذٍ تجهمت وابتعدت إلى التعريشات حول التراس.. لم تعثر على أثر لميغيل أو كارلوتا، لكن أين هما؟ فما إن يبتعد المرء عن الأنوار حتى يختفي بين طيات الظلام. تنهدت غريتا بسخط ثم رجعت.. لكن ماذا لو عثر عليهما شخص آخر غير متعاطف بطريق الصدفة؟ برزت من الظل ولمحتها استريلا على الفور.

ـ كنا نبحث عنك.. أو في الحقيقة كابل كان يبحث عنك.

بدا لها أنها في بداية مؤامرة ما خلال تلك الليلة، فقد رقصت معه.. هي إنجليزية، وهو إنجليزي.. لذا لا بد من وجود أشياء كثيرة مشتركة يتحدثان عنها، ولا بد من تجاذبهما معاً.. وضحك كابل بنعومة وكأنه أدرك مغزى أفكارها.

ـ من الأفضل أن تستسلمي.. لقد ارتبطتِ الآن معي. رضيت بهذا

www.rewity.com

أم لا.

ردت بخشونة: أنت ربطت نفسك، شئت أم أبيت.

ـ أنا مستعد لهذا.. هل أقول لك سراً؟

ـ إذن لن يصبح سراً بعد ذلك.

قرب فمه من أذنها: إنه لشيء رائع أن أحتوي فتاة إنجليزية هادئة جميلة بين ذراعي مجدداً.

ـ آه.. وهل تعبت ذراعاك من الجمال الأسمر؟

تأوه بسخرية: في الواقع، كانت حياتي نظيفة خلال السنوات الثلاث الماضية، يا إلهي، إنهم يحرسون بناتهم وكأنهن الجواهر..

ـ قد يكون لديهم أسبابهم وأنت موجود هنا.

ـ وهل هذا تعاطف؟

ـ لا.. بل بحث عن الحقيقة.

ـ أتعنين أن الرجل لا يقول الحقيقة أبداً؟

ـ وهل يفعل؟

ـ دائماً!

ضحكت.. وقالت: أخبرني عن عملك.

دون تردد، انطلق يسرد لها حياته اليومية كمدير مزرعة.. وهي تصغي إليه أدركت جو المرح الخفيف الذي أظهره عندما بدأ الرقص معها، لا شك أنه رجل صلب قادر، وقوي جداً.. مع ذلك فلا أثر للتفاخر ولا لخشونة فارس المزرعة، وعرفت أنه يحب عمله حقاً.

ثم لمحت فجأة كارلوتا من فوق كتفي كابل العريضتين.. كانت ترقص مع خالها وبدت بين ذراعيه صغيرة جميلة هادئة، وكأنها أحت بنظرة غرينا فرفعت رأسها تبتسم لها.. وتنهدت غرينا بارتياح.. لم يكن هناك أثر لميغيل بين الراقصين، والكونت هو الرفيق الأكثر أماناً لابنة أخته.

سمعت كابل يقول: في وقت ما يستهويني التجول بك لتتفرجي على المكان هنا.

ـ سأحب هذا.

ـ هل تجيدين ركوب الخيل؟

ـ لا أعرف سوى ركوب السيارات.

ـ يجب أن ندبر شيئاً.. وبالطبع، الأفضل أن تأتي معي في عطلة نهاية الأسبوع.. فهذا هو الوقت الوحيد المناسب.. لكن..

ـ في منزلك؟

ـ لدي منزلي الخاص، مع اثنين يعيشان معي.. كارميلا، مدبرة المنزل وزوجها لويز الذي يقوم بالأعمال المختلفة.. هكذا، ما رأيك أن تقضي معي يوماً؟ سترتفع الحواجب إلى السماء هنا لو أمضيت عطلة أسبوع معي.

ـ شكراً لك.. سأحب هذا.

ـ في الأسبوع القادم إذن؟ عظيم.. لكن يجب أن تخرجي مبكراً، وإلا ستقضين نصف النهار في السفر..

كانت تيريستا قد لمحتهما واقتربت منهما بابتسامة حزينة: أنت وكابل لديكما الكثير تتحدثان عنه.. سوف يتجول بك في ليما ويقدمك إلى أصدقاء إنجليز آخرين.

التفتت عندما اقتربت أختها بينما رافق استريلا رجل مكتنز داكن القسمات يدعى غوميز ابتسامته وقحة. انحنى بطريقة رسمية لتيريستا، وأخذها من المجموعة الصغيرة.

راقبتهما استريلا وعبوس خفيف بين حاجبيها الكثيفين، ثم قالت دون مقدمات: أين كارلوتا؟

ـ كانت هنا منذ لحظات.. ترقص مع خالها.

نظرت استريلا من الشرفة.. كانت الموسيقى قد توقفت ولا أثر

www.rewity.com

لكارلوتا.. ولحسن الحظ لا أثر للكونت أيضاً. وقالت غريتا: هل ترغبين في أن أبحث عنها؟

دون توقع، ابتسمت استريلا ابتسامة واسعة لغريتا: لا.. ابقي مع كايل.. لا شك أن من المثير لك أن تسافري مسافات بعيدة لتلتقي بشخص قد يكون جارك ومن بلدك..

وابتعدت استريلا تبحث عن كارلوتا ونظر كايل إلى غريتا هامساً: لا تبدين واثقة جداً.

لم تبتسم لنبرته الهامسة: لا.. ليس الأمر هكذا.. يا كايل، أشعر بالقلق لأنني مسؤولة عن كارلوتا.. ولسبب ما، يبدو أن استريلا تكرهها.. وأنا..

أمسك ذراعها ووقف: أعرف.. أنت خائفة من عبث القلوب الشابة.. وهذا أمر محرّم تماماً!

ومرر اصبعه على عنقه بشكل درامي.. وقادها إلى خارج دائرة الأنوار:

- تعالي.. سنجد هذين الغبيين الشابين، أينما كانا.. من هو الشاب؟

هزت رأسها، هذا سر عليها كتمانه حتى ولو أنها تخشى أن تكون استريلا قد عرفته منذ زمن..

بدا أنه قد اعتاد جيداً على الطبيعة الجغرافية لأراضي بيلار.. وأماكنها المنزوية الآمنة التي تدعو العشاق إلى الهرب من الجميع، وأخذ كايل يبحث وكأنه كاره لمثل هذا التطفل.. ثم جذبها بعيداً تحت ظلال الأشجار الكثيفة.. وبعد لحظة ظهر فستان كارلوتا الأبيض كالأشباح يطير فوق الممر الرئيسي للحديقة.. وطيف ميغيل القاتم يتحرك في الممر المقابل.

قال كايل وهو يتأهب للتحرك: أرأيت.. من الأفضل ألا تتولي

شيئاً.. فقد تلقيا صدمة وسوف يصيبهما الذعر ولن يفعلا شيئاً الليلة.

- أجل.. أنا لم أفكر بهذه الطريقة.

مسكينة كارلوتا.. ستكون مذعورة جداً! ولامست ذراع كايل: لن تخبر أحداً بهذا.. أليس كذلك؟ أعرف أنني يجب أن أمنع غرامها الصغير هذا، لكن قلبي لا يطاوعني.. ومن الظلم ألا يسمح لها باختيار أصدقائها.. أعني أن التقاليد جيدة، لكن هناك حدود.. كيف تتعلم الحكم على الطبيعة البشرية بنفسها؟

- ليست مضطرة.. فهذا يقرر عنها..

- لن أقبل مثل هذا الزواج.. وأفضل ألا أتزوج أبداً.

- تربيتك أنت مختلفة.. يجب أن تتذكري هذا في تعاملك معها.. يجب أن تدركي أنها تآلفت منذ طفولتها أن تتقبل نموذجاً مختلفاً عما تربيت أنت عليه.. ولو أعطيت حريتك، أشك في سعادتها بها.

- لكن أنا واثقة أن حرية المرء في اختيار أصدقائه تؤهله للحكم على الشخصيات.

- موافق.. لكن لو كنت مكانك لبقيت بعيداً عن أي نزاع، ومهما فعلت لا تتورطي بخصوصياتهم.. فلا أحد غيرهم يدرك حقاً مدى ردود أفعالهم.. قد تجدين نفسك متورطة في صراع عائلي.

شيء ما في نبرته جعلها تتعثر في خطواتها، ورفعت نظرها إليه قائلة:

- تبدو كأنك تحدثني عن تجربة شخصية.

- هذا صحيح.. لذا خذي بنصيحتي، لو كنت تفكرين في مساعدة الشباب.. انسي الأمر..

وضع ذراعه على كتفيها، ثم قال بخفة: يجب أن أعود الآن.. متى سأراك مجدداً؟

قالت بنفس طريقته: ظننت أننا اتفقنا على نهاية الأسبوع القادم.

www.liilas.com

ـ أجل.. أعرف. لكنني تساءلت إذا كنت ستذهبين إلى المدينة في وسط الأسبوع.

قالت ببطء: ربما يجب أن يظل لقائنا في نهاية الأسبوع، فأنا لست واثقة متى تسمح الظروف؟!

ـ إلى نهاية الأسبوع القادم إذن.. موتشو بونيو، يا سنيوريتا!

سطعت أضواء الحديقة الناعمة على وجهها المستدير وتأهبت للرد.. لكنها لم تقل شيئاً، فقد وقع في طريقها طيف أسود، وتوقف الكونت.

قال بأدب رسمي: هل تستمتعين بالليل يا سنيوريتا؟

أحست بامتقاع وجهها، وأرادت التخلص من الذراع الصديقة حول كتفيها.. لكنها اضطرت أن تظل رابطة الجأش وتقول بثبات: كثيراً يا سنيور، إنها أمسية جميلة.

ـ بونيو.

هز رأسه نحو كايل بتحفظ، ثم ابتعد.. وراقبته غريتا دون أن تلاحظ أن كايل أبعد يده عن كتفيها. وهمست: جيد!

لكن لا شيء كان جيداً.

* * *

عادت المجموعة إلى الفيلا مبكراً صباح الاثنين ولم تندم غريتا على ما حدث في نهاية الأسبوع. كان يوم الأحد حاراً بشكل لا يحتمل، واشتاقت لكايل سكوفيلد.. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تحس فيها أنها بين غرباء، وبدا هذا الإحساس مثيراً للاضطراب.

أفرغت حقيبتها الصغيرة وحاولت أن تصرف ما يدور في تفكيرها. كان من الواضح جداً أن الكونت اعتبرها تعبث مع كايل تحت ظلال الأشجار في الحديقة.. وقبلها بساعات كان يملي عليها محاضرة في

طريقة التصرف مستقبلاً.. ولم يترك لها أدنى شك في رأيه الصريح بالأنثى غير المطيعة.. «نحن لا نحترم...»

لكنها مختلفة عنهم.. وكايل إنكليزي.. فبأي وجه حق يزدريها الكونت؟ هل ظن أن كايل كان ينوي شيئاً لمجرد وضع ذراعه على كتفيها.

ـ تبدين غاضبة يا غريتا.. ماذا يزعجك؟

استدارت.. كانت كارلوتا قد اقتربت من الباب نصف المفتوح، ونظرت إلى الداخل.. وابتسمت غريتا على مضض: مجرد أفكار.. أين كارلوس؟

ـ في دروسه.. لدينا راحة لساعة أو أكثر. هل استمتعت بعطلة نهاية الأسبوع؟

ـ بعضها.. أو معظمها.. وأنت؟

تنهدت كارلوتا: أنا سعيدة جداً، لم يرنا أحد سواك والسيد سكوفيلد. لن يفشي سرنا.. أليس كذلك؟

ـ لن يغدر بأحد.. لكنك تخاطرين كثيراً.. هل ظننت أن الحديقة لك وحدك؟ ماذا لو كانت استريلا بدلاً مني؟

ضحكت: أي رجل قد يختار استريلا لنزهة في ضوء القمر؟ إن لها طبع سيء.. وأنا لا أعتبرها جميلة. إنها ترغب أن تكون كونتيسة، أتعرفين هذا؟ لكنني لا أظن أن خالي سيختارها. أحياناً أظن أنه لن يختار أحداً.

ظلت غريتا صامتة ونظرت إلى الحقيبة الفارغة، ثم أقفلتها بعصبية.. وقالت كارلوتا: هل تذكرين دون غوميز؟

ـ أظن ذلك.

ـ إنه ليس طويل القامة مثل خالي لكنه ثري، وهو ليس عجوزاً جداً.. إنه يتمنى الزواج من تيريستا.

www.rewity.com

اكتسى وجه غريتا بتعبير وافقتها كارلوتا عليه، تهز رأسها بحزن:

ـ أجل.. فعائلتها موافقة.. إنه ثري جداً، وعندما تموت أمه سيرث كل أملاكها.

تمتمت غريتا: مسكينة يا تيريستا.

ـ لم تقرر بعد، لكن هذا أمر مؤسف.. لم تعد فتاة، وقد لا تأتيها الكثير من الفرص.. ولا أظنها تملك «دوطة» كبيرة لأن زوجها الراحل لم يكن غنياً.

تنهدت غريتا بعمق: يدهشني أنهم سمحوا لها بالزواج منه.. نظراً لقيم الزواج عندكم.

قالت كارلوتا بصبر: أنت لا تفهمين.. المسألة ببساطة أن العائلات التي تهتم بسعادة بناتها، تختار لهن الأزواج الذين يستطيعون إعالتهن.. ولذلك لم توافق العائلة على اختيار تيريستا..

ـ لكنها كانت سعيدة في زواجها..

تنهدت كارلوتا موافقة واقتربت من النافذة.. ثم سألت بعد لحظة: هل أعجبك سنيور سكوفيلد؟

ـ أجل.. أظن ذلك.

ـ يبدو لطيفاً جداً.. سيكون من المثير أن يقع في حبك.

ـ آه.. لا.. لن يحدث هذا.

ـ ولماذا لا؟ فهو جذاب وأظنه معجب بك، وقد تقعين أنت في حبه وتكونين سعيدة مثلي.. لقد سعدت كثيراً في عطلة الأسبوع هذه.

ـ حسناً.. ركزي على سعادتك واتركيني وكايل سكوفيلد، فنحن إنكليزيان ومن الطبيعي أن نتحدث معاً، وهذا لا يعني أننا سنسقط رأساً على عقب في الحب.

أمالت كارلوتا رأسها جانباً وتفرست بغريتا طويلاً، بتفكير: وهل تحبين أحداً غيره؟

ـ لا.

ـ أتعنين أن لا وجود لرجل يجعلك.. كيف تقولين..؟ ترتجفين بقشعريرة لمجرد التفكير فيه؟

ـ بكل تأكيد لا.. وليس هذا هو الحب يا حبيبتي فهو ليس مجرد قشعريرة على الظهر.

ـ ربما لا.. لكنها لذيذة جداً.. أليس كذلك؟

ـ دون شك.. لكن لا يمكن للمرء أن يقضي حياته مستمتعاً بتلك القشعريرة.. هناك أوجه أخرى للحياة.. هل أفرغت حقيبتك يا كارلوتا؟

ـ لقد فعلت كارميلا ذلك بدلاً مني.. وطلبت أن ترسلي لها الغسيل.. لماذا غيرت الموضوع يا غريتا؟

ـ الحب والقشعريرة لا يناسبان صباح يوم الاثنين.. لكنك لا تعرفين شيئاً عن هذا.

ـ أظن أن هناك رجلاً.. لكنك لا تريدين أن تخبريني.

ـ لا شيء أقوله.. ولو كان في حياتي شخص من بلادي فهل كنت أقدر على فراقه؟!

يبدو أن كارلوتا لم تقتنع.. واسترسلت غريتا: وأنا لم يمض عليّ هنا زمن طويل لأقع في حب أحد.

قالت كارلوتا وكلها أمل: لا.. هذا صحيح، ربما.. لكن من يدري؟ قد تقابلين شخصاً مثيراً بمعجزة.. لميغيل صديق يعرف أحد المغنين في «لاس كاستنيو لاس روجاس».. هل تتطلعين شوقاً لزيارتنا إلى هناك؟

ـ جداً..

انقضى اليومان بشكل غريب وبطء.. كان الأسبوع قد بدأ بهدوء، وساد الفيلا صمت مطلق أكثر من العادة.. كانت دونا إيزابيلا مرهقة

www.rewity.com

بعد عودتها ومكثت معظم وقتها في غرفتها.. ثم وقع كارلوس ليجرح ركبتيه، وبعد ساعات من العودة سافر الكونت على الفور لاتمام بعض الاعمال التي لم تنته بعد. وبالطبع ذهب ميغيل معه.. وبعد ظهر الأربعاء كانت كارلوتا مقتنعة بأن القدر سيأخرهما، وأن ميغيل لن يعود في الوقت المحدد.

أصيبت غريتا بعدوى هذه اللهفة، وانتظرت بفارغ الصبر. عندما اتجهت السيارة الأنيقة القوية إلى الطريق الداخلي للفيلا، وظهر منها الطيف الطويل الرشيق، تنهدت بارتياح.

تقدم كارلوس وهو يعرج للقائهما.. لكن غريتا ظلت في مكانها تحت ظل تعريشة مليئة بالزهور الحمراء، وردت على تحيته الرسمية برسمية مماثلة.

بعد أقل من ساعة، غادر الفيلا مجدداً.. ما هي المنّة التي سيطلبها منها؟ كانت تفكر في ذلك عند استعدادها للخروج.. قال لها إنه سيبحث الأمر معها لاحقاً.. وكان هذا منذ أربعة أيام. ربما لم تكن مسألة مهمة.. وربما نسيها لعدم أهميتها.. ثبتت قرطاً من الكريستال في أذنيها واستدارت لتحكم على مظهر كارلوتا.

انتظرت بترقب، متجهمة لا شعورياً. وقالت غريتا بصدق تام: تبدين جميلة.. أنا وميغيل سوف نبقيك الليلة تحت حراسة مشددة.

ـ حقاً؟ وهل أبدو.. كبيرة؟

ـ عشرون، على الأقل.

ـ يونيو! كثيراً ما تمنيت أن أكون أطول قامة، وأنت كذلك تبدين رائعة يا غريتا.. تعالي ودعينا نذهب قبل أن يغير أحد رأيه.

كان الإحساس بالحرية كأنه حلم.. وقاد ميغيل سيارة صغيرة مكشوفة بسرعة مذهلة وعبث الهواء بشعر الفتاتين وجعلهما تضحكان، حتى تهدجت أنفاسهما عندما وصلا إلى المطعم المنزوي المفضل لأهل

المنطقة.. كان الجو هادئاً وحميماً، والطعام ممتازاً، وميغيل مضيفاً لطيفاً برغم أنه بدا رسمياً قليلاً مع غريتا في بداية الأمر.. لكن سرعان ما استرخوا، ونسوا الرسميات.

تمتعوا بالعشاء على مهل، ثم ساروا تلك المسافة القصيرة إلى لاس كاستا نيولاس روجاس، الذي يبدو مثل كل أماكن الاحتفالات الليلية في العالم، لن تظهر روعته إلا بعد تقدم ساعات الليل وتدفق الناس إليه.

وبعد قليل صار مكتظاً.. وارتفعت موجات الحرارة. عندئذٍ لوحت غريتا بكتيب البرنامج أمام وجهها الساخن.. تتساءل كيف يحافظ الراقصون على حركتهم.. لكن، بالرغم من ألوان الفتيات اكتسب الرجل الذي يرقص إعجاب المشاهدين.

حين أضيئت الأنوار وماتت ذروة التصفيق والهتاف، التفتت غريتا إلى رفيقيها. فابتسما سروراً وقالت كارلوتا: آه.. انتظري حتى تسمعي الفلامينغو.. خوليو هو أفضل الجميع.

وعزفت أنغام الغيتار أول أغنية حركت مشاعر الحزن.. ونسيت غريتا كل أفكارها.. لكنها واجهت صدمة كبرى عندما انتهت قصة الأغنية فقد اكتشفت اختفاء كارلوتا وميغيل.

كان الفلامينغو آخر عرض مسرحي. وانصرف الجميع لعروض أخرى.. وتحركت غريتا تخرج من المقصورة تقتفي أثر رفيقيها. رأتهما يدخلان من باب الشرفة عند أول السلم.. وعلى وجه كارلوتا شعاع أحمر قاتم، في تلك اللحظات، سحبت يدها من يده، وتقدمت غريتا إلى الأمام.. وقبل أن تتمكن من الخروج من بين الجموع التي تسد طريقها، رأى رجل طويل أنيق ميغيل والتفت إليه يحييه.

أزعج غريتا إحساس بالقلق لم تعرف نوعيته وهي تصل إلى المجموعة الصغيرة، وقدمت إلى الغريب الأنيق الذي يُعتبر الصديق

www.liilas.com

المشترك لميغيل والمغني خوليو الذي ذكرته كارلوتا سابقاً.

انحنى السنيور غونزاغو على يد غريتا وأعلن أنه مفتون لمقابلة سنيوريتا إنجليزية.. وما هي إلا فترة قصيرة حتى وجدت غريتا نفسها مع كارلوتا وميغيل، يتجهون خلف المسرح لزيارة غرفة المغني والتعرف عليه. كان ساحراً رومانسياً للغاية.. وقد أبدى هو أيضاً فتنته لتعرف على «الفتاة الإنجليزية» ودعاهم للعودة كضيوف له ثم جذبه معجبوه وهم في طريقهم إلى حفلة.

لم تلاحظ غريتا أن السنيور غونزاغو قد زج بنفسه في مجموعتهم الصغيرة، وحين أدركت هذا لم يكن هناك وقت للتراجع. فجلسوا إلى طاولته.. لكن ترتيب السهرة أصبح واضحاً حين طلبها ميغيل بأدب إلى الرقص.

لا شك أنني أصبحت بليدة الفهم! هكذا فكرت وهي تنزلق بين ذراعي السنيور غوانزاغو الخبيرتين على حلبة الرقص. الآن أصبح العدد متوازناً، ولم تعد بينهما حواجز.. على أي حال السنيور غوانزاغو راقص ماهر، فكيف تنسحب وتفسد تلك الساعة الجميلة لكارلوتا؟

بعد قليل من الوقت، كان على وشك أن يزيل كل تحفظات غريتا.. لكن ظل هناك شيء من القلق، فقد تخيلته يضمها إليه بقوة. وعليها أن تضع حداً لذلك. وستصرّ على أن يعيدهما ميغيل فوراً إلى المنزل.. نصف ساعة أخرى وتتحرك السيارة بهم.. عند منتصف الليل.. ولم يكن لديها فكرة عن النظام الذي يحكم سهر كارلوتا خارج المنزل. لم يخطر ببالها هذا السؤال، ولم تفكر أن تتأكد.. يا للسماء!.

ـ أرجوك لا تقلقي يا سنيوريتا.. فقد أخفيا الأمر.

ـ أرجو عفوك؟

أعادها صوت رفيقها الهادىء من أفكارها، ونظرت إلى وجهه.

فكرر:

ـ ذكرت أنهما تكتما الأمر تماماً.. أنت تأخذين واجباتك نحو الدونا بشكل جاد للغاية.. أليس كذلك يا سنيوريتا؟ لكن حبك الإنكليزي للحرية يجعلك متفهمة لمشاعر شابين تفرق بينهما تقاليد بالية.

ضاق حاجبا غريتا الرفيعين: لست واثقة مما تعني يا سنيور.

ـ آه.. هيا الآن يا سنيوريتا.. على المرء أن ينظر إليهما ليفهم.. من المؤسف ألا يسمح لهذا الحب أن يثمر.

أحست بالذعر. كم من الناس غيره عرفوا بسرّ المسكينة كارلوتا؟ استريلا تشك بكل تأكيد. ولقد عرف كايل.. والآن هذا الغريب، وكم سيمضي من الوقت حتى يصل الخبر إلى أذن الكونت؟

قالت بارتباك وهي تحاول أن تضحك: أنت مخطىء تماماً يا سنيور.. فكارلوتا ترافقني الليلة.

ـ أنت؟

ضحك بطلاقة وطوقها بذراعه بشدة.

ـ فتاة إنجليزية مع مرافقة؟ وفي وقت يعرف فيه العالم كله أن الفتاة الإنجليزية تفعل ما تشاء، وتذهب حيثما شاءت، ومع من تشاء.. آه.. هذه نكتة جيدة.. لكن، لا تقلقي.. الأمر كما ذكرت تماماً.. يحتاج إلى روح الكتمان.

أحنى رأسه إليها متمتماً: انزعي هذا العبوس المتوتر.. ودعينا نتمتع بالأمسية.

أمام رعبها، أخذ يسمعها كثيراً من الإطراءات المثيرة للسخط.. حتى أحست غريتا بعذاب الحرج.

وسمعته يقول: أرجوك يا سنيوريتا لا تجعليني أبدو كالأحمق أمام الناس.

www.rewity.com

ردت بحدة: عليك ألا تحرجني أكثر من هذا، وإلا لن يكون لدي خيار سوى أن أجعل من كلينا أحمقين.

رد عليها بنبرة التزام: في هذه الحالة يا سنيوريتا، ستنهي الرقص، وأعيدك إلى رفيقيك.

مع ذلك استمرت يده تضغط على ظهرها. أخيراً لم تعد تحتمل لحظة أخرى. وهي تكاد تبكي، انتزعت نفسها من حلبة الرقص بلا مبالاة بالرؤوس المستديرة نحوها، وركضت لتبتعد.

مسحت عينيها غاضبة بإذلال، ونظرت دون أن ترى كارلوتا وميغيل. يجب أن تجدهما بسرعة. قبل. وعضت شفتها شاهقة. آه!

صاحت بصوت مرتفع حين أمسكت ذراعها والتفتت تأهباً لمواجهة السيد غونزاغو والشجار معه للتخلص منه. ثم اتسعت عيناها، وتغير قلقها إلى فزع وهي ترى الرجل الطويل الغاضب يقف منتصباً أمامها.

قال الكونت ببرود: عرض فاتن.

سلبت الصدمة قدرتها على النطق مؤقتاً. أي جنّي جاء به في هذا الوقت بالذات؟

لم يتمهل حتى تهدأ بل ضغط بأصابعه كالحديد على ذراعها. وقال بصوت متجهم: سنغادر الآن.

ودفعها إلى الأمام.

أعادت إليها الحركة رشدها وقالت بجنون: لا.. ! ليس بعد. يجب أن أجد..

- إذا كنت تشيرين إلى ابنة أختي وسكرتيري المتهور، بإمكانك نسيان الفكرة. لقد اهتممت بهذا.

شيء ما في لهجته جعلها ترتجف. ما الذي حدث؟ أين هي كارلوتا؟ وحاولت أن تتكلم لكنه قاطعها بأدب جاف: أرجوك يا

سنيوريتا. كارلوتا تنتظر في السيارة. هل معك معطف؟

- نعم ولكن..

- اذهبي واحضريه، ثم عودي إلى هنا.

- أنا.. أجل.. لكنه ليس هنا. لقد تركته في سيارة ميغيل. إنها ليلة دافئة، وأنا..

- محفظتك معك.. تعالي يا سنيوريتا.

ظلت أصابعه القاسية حول ذراعها. وكأنها إحدى الجواري أو قطعة أثاث يعيدها إلى مكانها في منزله. وفتح لها الباب ووضعها في الداخل. ثم قاد السيارة فوراً متجهاً إلى الطريق الرئيسي بعيداً عن وسط المدينة، واستدارت إليه فجأة تحاول الشرح: لكن يا سنيور.. هل يعرف ميغيل أن..

- إنه سيرجع بسيارته.. إحدى الخادمات ستعيد لك معطفك على وجه السرعة.

احمر خداها عندما تذكرت ما حدث وسرتها العتمة داخل السيارة. منذ متى يقف هناك يراقب محاولاتها للابتعاد عن اهتمام سنيور غونزاغو بها؟ هل يظن أنها شجعته؟

اشتاقت للحديث مع كارلوتا. تحس أن صمت الجسد الصغير في الظل يعني التعاسة. لكن جفاء الرجل الذي يقود السيارة كان عائقاً ضد شجاعتها المرتجفة. من الأفضل الانتظار حتى تصبحان وحدهما.

عندما وصلت السيارة إلى الفيلا، خرج منها الكونت بسرعة وفتح الباب ليخرج ابنة أخيه بأمر باتر ويرسلها إلى الداخل.

لكن الهرب لم يكن سهلاً أمام غريتا، فقد أغلق الكونت الباب بقوة:

- لحظة واحدة يا سنيوريتا. هناك شيء أود قوله.

هبط الرعب كثقل الرصاص على روحها المعنوية وهي تدخل أمامه

www.rewity.com

إلى «الصالة». واضح أنها كسرت القوانين..

قال متجهماً: حسناً يا سنيوريتا.. ألا زلت واثقة من قدرتك على العناية بنفسك؟

حدقت فيه بدهشة، كانت تتوقع استجواباً يتعلق بكارلوتا. وأحست بارتياح خفيف: لقد خضت دائماً معاركي الخاصة بنفسي يا سنيور، وحاولت ألا أسيء الحكم مرة أخرى.

ـ خطأ في الحكم؟ يورديوس! ألا تدركين الخطر لأول وهلة؟ ألم أنك لا تأبهين بسمعتك؟

قوة الكلمات أدارتها بحدة لتواجهه.. تنهدت بحدة، ثم بللت شفتيها:

ـ أنا لا أظن.. أن الأمر مأساوي كما تتصور يا سنيور ولا أظن أن مرافقة شخص متهور سوف تشوه سمعتي.. على أي حال.. لقد قلت له رأيي فيه وتركته قبل أن تصل.. هكذا..

أمسك معصمها وهي تلوّح بيدها: لا زلت لا تفهمين.. أنت لست في بلادك يا سنيوريتا.. فتاة شابة غير مرتبطة تتعرض للعيث في مكان عام أمر لا أهمية له في لندن.. لكن ذلك لا يمكن تجاوزه في مجتمعنا.. ربما أنت لا تهتمين.. لكنني أهتم بالتأكيد.

نظرت إليه غريتا والغضب يتحرك داخلها.. نظرت بحدة إلى يده التي تمسك معصمها وجذبتها بقوة لتحررها.. ثم قالت ببرود: ألم تنس شيئاً يا سنيور؟ أنا الطرف المتضرر.. اضطررت إلى التعامل مع ذئب ذو وجهين ينتمي إلى مجتمع أنت فخور به.. وينبغي أن أكون أنا غاضبة.

ـ ربما عليك أن تكوني أكثر مرحاً في المستقبل.. ما كان يجب أن تعرضي نفسك لمثل هذا من البداية.

ـ وكيف أعرف أن هذا سيحدث؟

ـ لقد سبق وحذرتك من اللامبالاة والعبث، أم أن ذاكرتك ضعيفة كحسن تصرفك؟.. لكن تأكدي أن الفرصة لن تتاح لك مرة أخرى.. سأهتم بهذا بنفسي.. كان يجب على ميغيل ألا يسمح بمثل هذا الموقف ولا أن تتورط ابنة أختي فيه.

ـ لكنها لم تكن متورطة!

ـ في رأيك، ربما لا.. في المرة القادمة لن تخرجي إلا مع المرافق الذي أعينه أنا.. والأمر كذلك مع ابنة أختي.. أخشى أنها تفكر بحماقة في سكرتيري.. على أي حال لا بد أن أرسله إلى «هواروبا» لفترة، وهذا سوف يزيل بالتأكيد أي هراء من رأسها.

اجتاحت عواطف غريتا تقلبات مجنونة.. أثار غضبها في البداية بتسلطه وهجرته، ثم تغلب الرعب عليها وحاولت تخفيف الضرر.

مدت يديها متوسلة: آه.. لا يا سنيور! أنت مخطىء تماماً.. أنت..

ـ كيف هذا؟ اشرحي لي يا سنيوريتا.

ـ لا يجب أن تلوم كارلوتا، أو أن ترسل سكرتيرك بعيداً.. لأنني المسؤولة عن هذا الخطأ.. لقد طلبت منها أن تأتي معي.. كانت فكرتي.. وتصرف ميغيل لا شائبة فيه..

ـ إنه هو الذي قدمك إلى ذلك «الجوغولو» زير النساء.. أليس كذلك؟

والتوى فمه اشمئزازاً.

ـ أجل.. لكن لم يكن لديه خيار.. لقد جاء غونزاغو وتحدث معنا.. فهو يعرفه.. وهكذا أخذني إلى الرقص.. بدا لي شخصاً لطيفاً في البداية، و.. لو لم يرقص معي لكان عددنا مفرداً.. لا يمكن لميغيل أن يراقصني ويترك كارلوتا وحدها.. إنها..

ـ كان هدفكم مشاهدة الفلامنغو لا الرقص.

www.liilas.com

هزت رأسها بيأس: أجل.. أعرف. لكنني أحب الرقص.. وبدا لي طبيعياً أن أرقص.. ألا يمكن أن تفهم؟

ـ ليس تماماً.. أنا لم أسمع بثلاثة خرجوا للرقص.

استدارت عنه بعجز: لكن هذا ما حدث.. وأكرر مجدداً أنني المسئولة عن هذا الخطأ.. أرجوك لا تلم سكرتيرك أو ابنة أختك.

ساد صمت قصير، واستدارت.. لتجده يراقبها بعينين غير مقروئتين.. فتوسلت: أرجوك يا سنيور.. لا تؤذِ كارلوتا.. ولا تلم ميغيل.

على مضض، ارتفع حاجباه الأسودان: وهل تحزنك هذه الفكرة يا ستيوريتا؟

تنهدت بعمق.

ـ أنا أكره الظلم، ولهذا أطلب منك ألا تكون متسرعاً في الحكم.

بعد لحظة صمت تحرك فجأة نحو الباب: حسن جداً، سأفكر في الأمر.. لكن تذكري يا ستيوريتا، لا تدعيني أراك مرة أخرى مع صحة كهذه.. هل سمعت؟

تنفست بقوة: آه، أجل يا سنيور! لن أكون حمقاء مرة أخرى.

رفع يده ليفتح الباب.. ثم رفع الأخرى ليلمس خصلة شعر تجعدت فوق جبينها.. حدق فيها بنظرة متفحصة فرأى البقع الحمراء الحزينة التي كانت تحيط بخديها، وقال بنعومة: إن دروس الخبرة هي الأكثر ألماً.. أليس كذلك؟ خاصة عندما يضطر المرء إلى الاعتراف بأنه تعلم الدرس.

ـ أجل يا سنيور.. فالاعتراف هو الأكثر ألماً.

رفع رأسه وفتح الباب.. وخلال صعودها للسلم، كانت تحس به يقف يراقبها من تحت حتى توارت عن نظره في منعطف الرواق العلوي.. كانت ترتجف كثيراً حين وصلت إلى غرفتها، وسمحت

للتوتر أن يتوارى.. شكراً للسماء فقد أقنعته بأن شكه في أفكار كارلوتا لا أساس له. عندئذ أحست بالارتياح فابتسمت وهي تتأهب للنوم.. لكن وهي مستلقية في الظلمة فقد الميل للارتياح عزيمته، واضطربت عيناها.

وضعت رأسها على الوسادة، وأسندت خدها على يدها.. بدا من الصعب أن تطرد من ذاكرتها ذلك الوجه المتسلط.. ليس القسمات وحدها، بل الصوت كذلك.. واستعادت من ذاكرتها حديثه.. جملة واحدة قيلت بصوت منخفض منذ زمن بعيد: «لديك ميزة الصدق النادرة في النساء.. ولهذه الميزة، اتخذت قراري.. وأرجو أن يكون قراراً صائباً..».

الصدق...

هل تخون الصفة التي تستطيع من خلالها أن تزيح عن نفسها اللوم في بعض الأحيان؟ أحست بالحرارة تسري في خدها النائم فوق يدها.. وكان مزعجاً أن يرافقها الإحساس بالخجل في الفراش.

• • •

www.rewity.com

٦ ـ بين العقل والعاطفة

اقترب الأسبوع المضطرب من نهايته.. مع أن ميغيل ظل موجوداً ولم يشر الكونت إلى تهديده بإبعاد سكرتيره، إلا أن الشك ظل قائماً أو هكذا تصورت غريتا.

كان واضحاً أن الكونت وبخ بشدة ابنة أخته.. لكن ما قاله بالضبط ظل مشوشاً.. الأمر الأساسي الذي برز من كلامها عودة مسألة المدرسة السويسرية إلى الجو.. والفكرة كانت ترعب كارلوتا.

قالت تجادل: لا أفهم لماذا يريد معاقبتي! لم تكن تلك غلطتي.. وأنت لا تلومني يا غريتا، أليس كذلك؟

ـ يا للسماء! ولماذا ألومك؟

ـ هذا ما سألته، لكنه استمر يتحدث كثيراً عن تهورنا، أنا وميغيل.. ومن يكون السنيور غونزاغو، وكيف التقيت به.. في البداية كنت ممتنة لأنه لم يشك في أنا وبميغيل، ولم تكن لدي الجرأة لأبوح بشيء حتى لا أخطىء.. ثم سأل هل أنا واثقة أنها المرة الأولى التي تقابل فيها ذلك.. الرجل.. ثم بدأ بالقول انه سيرسلني إلى المدرسة.. آه.. يا غريتا لن يرسلني.. هل سيفعل؟ ليس الآن وأنت هنا؟

قالت غريتا ببطء: إنه يظن بأنك ستستفيدين من صحبة فتيات في مثل عمرك.. سيكون تغييراً مفيداً لك وفرصة رائعة للسفر إلى أوروبا.

ـ لكنني لا أريد التغيير.. ولا أريد زيارة أوروبا.. الآن.

ـ إذن يجب أن تحسني التصرف.. وكذلك أنا.. حتى تنتهي الأزمة.. ومن الأفضل أن تخبري ميغيل بذلك.

هزت كارلوتا رأسها: أظن أنه من الأفضل ألا نقابل غونزاغو مرة أخرى..

مع أن الكونت كان هادئاً مهذباً كعادته في تصرفه مع غريتا، إلا أنها أحست بالاستهجان من خلال نظرته لها. أم أنها نظرة توحي بخيبة الأمل؟

فيما مضى، كانت نظرة فيها شيء من خيبة الأمل تثير غضبها وسخطها.. لكنها لم تفعل هذا الآن.. والآن فقط أدركت ضخامة المسؤولية التي يحملها.. نظرياً أخذت أمه الكونتيسة على عاتقها العناية الأبوية بالبتيمين.. لكن الكونتيسة العجوز كانت تشيلية المولد، ولا تتحمل رطوبة ليما ذات الطقس الشبه استوائي، فكانت تمضي أكثر أوقاتها مع شقيقها وزوجته في أملاك للعائلة ولا تعود إلا في مناسبات عائلية.. ثم هناك دونا إيزابيلا الأرملة المعتلة الصحة.. وهناك أيضاً مستأجرو الأراضي والعمال. والآن هناك ولدا شقيقته ليعتنى بهما.. فلا عجب إذن أن يتصف بالتسلط.. وأن تمتد هذه السلطة آلياً إليها.

لم تأسف لغروب الشمس في يوم الجمعة، وأصبحت حرة للتطلع قدماً إلى عطلة نهاية الأسبوع. سوف يأتي كايل ليأخذها عقب الفطور مباشرة وستبتعد اليوم كله، وتخطط لقضاء يوم الأحد تستكشف وحدها.

فور انتهاء وجبة المساء اعتذرت لتخلد إلى غرفتها. سوف تغسل شعرها بالشامبو وتمشطه قبل النوم.. لكن عليها أولاً أن تختار ما ترتديه في الغد، وخرجت إلى الشرفة تفكر بما لديها من ملابس.

كان نسيم الليل لطيفاً يأتي بهمس بارد من البحر، والرقة والعذوبة من الزهور النائمة تحت في العتمة.. تنهدت غريتا واستندت إلى السياج

www.liilas.com

لتتلاشى مشكلة الفستان من ذهنها ويعود إليه إحساسها الملح بالذنب.. ربما من السخافة أن تتذكر الصدق في هذا الشأن لأنها في الحقيقة لم تتفق مع كارلوتا على خداع خالها.. ذلك الحب الرومانسي الرقيق لا فائدة منه وهي واثقة من ذلك.. لكن هناك وجه آخر مهم كان قد غاب بالها تماماً حتى الليلة: مسألة إرث كارلوتا. بالتأكيد لن ينسى الكونت هذا ومن الطبيعي أن يشك في دافع الشاب الذي يهتم بابنة أخته.

مسكين ميغيل.. لأن غريتا واثقة أنه مهتم حقاً بكارلوتا.. لكن هل سيصدق الكونت هذا أبداً؟

هزت رأسها بأسى وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة، فقد بدأت تفكر في الأمر بجدية توازي جدية كارلوتا. وعادت إلى مسألة عزلة كارلوتا.. ينبغي أن يكون لها الكثير من الصداقات من الجنسين في مثل عمرها، وإلا لما كان لها ذلك التعلق المجنون بالشاب الوحيد الذي عرفته عن قُرب.. على أي حال من هو الشخص الذي يفكر فيه الكونت ليكون زوجاً لها؟

قطعت حركة مفاجئة في الأسفل سيل أفكارها. رأت الطيف يقف مسمراً.. متأخرة جداً، وقد انسحبت إلى الوراء.

ـ يا سنيوريتا؟

توقف الكونت لينظر لأعلى وقد التقط شعره الأسود بريقاً أزرق من مصدر مجهول.. تصاعدت الصورة الحية في ذاكرة غريتا، تسترجع أول صباح لها هنا.. وفرضت عيناه القويتان المشعتان الانصياع عليها.. وضحك: تماديت للغاية في أفكارك يا سنيوريتا.. حتى قاطعت سعادتك بالليل.

امتزجت رائحة سيجارته بنعومة مع موجات صغيرة من روائح الزهور.. وقالت: أجل.. إنها ليلة جميلة.

ـ تقريباً بجمال الصباح..

رفرفت أمامها فراشة، وتساءلت عما إذا كانت قد تخيلت لمحة شيطانية تمتزج بنبرته الناعمة.. أم أن هذا مجرد خبث عفريت ما يجعلها تتذكر أول صباح في هذا المكان؟

قالت بارتباك: لست واثقة يا سنيور.. من العسير مقارنتهما.

ـ أجل.. هذا صحيح.. كما لا يتمكن المرء من مقارنة شعاع امرأة جميلة يبعث الحياة في زهور الفجر بغموض المرأة ذاتها حين يخفي الليل جمالها وتعكس عيناها حبها.

نبرة صوته حولت الملاحظة إلى تواصل حسي غريب، وكان لديها القوة لتثير الاضطراب. وتحركت غريتا بسرعة وكأنها بذلك تقاوم الإحساس الغريب الذي أثاره فيها صوته.. وقالت ببرود: يبدو أنك تعرف جيداً كيف تبدو في الصباح الباكر في الليل.. لكنك تتحدث بالطبع عن الآلهة القديمة، وليس عن مخلوق بشري.

ضحك بصوت عميق أجش ونظر إليها بتحد: إنه تقرير شعري.. وليس عن الآلهة بالتأكيد.. هل تأخذين كل شيء دائماً بحذافيره؟

ـ أحياناً يكون هذا أكثر أماناً من قراءة ما بين السطور يا سنيور.. هناك شيء أود أن أسألك..

قاطعها: آه.. أجل.. لكنني على وشك أن أعاني تشنجاً في عنقي.. هل لديك مانع من أن تنزلي لهذا المكان لتواصل الحديث؟

نظرت إلى خطوطه المعتمة.. وأحست بعمق يشبع ضحكة فترددت بدهشة. عندئذٍ جاءتها سخريته اللاذعة: هل أنت خائفة من الظلام يا سنيوريتا؟

تصلبت غريتا: أبداً!

توقفت لتأخذ معطفاً خفيفاً لكتفيها، ونزلت متعمدة التمهل في خطواتها.. ثم تحركت ببطء في الردهة المظلمة.

كان ينتظرها، يستند بلا مبالاة على عامود من الرخام الأبيض..

www.rewity.com

أخذ المعطف من على ذراعها ولفه حول كتفيها بتمهل.

تمتمت: شكراً لك.

قال بصوت متزن: كان هناك شيء تريدين أن تسألي عنه يا سنيورينا؟

لسبب ما أحست بالارتباك.. وهذا ما جعلها تتلعثم قليلاً في كلماتها: أجل.. عطلة هذا الأسبوع.. أردت فقط أن أتأكد..

- آه.. أجل.. إنه وقت راحتك، يبدو عليك قليل من القلق يا سنيورينا.. هل أنت خائفة أن أقيد حريتك فجأة؟

لم تتوقع شيئاً من هذا وكشف ردها دهشتها: لا.. أردت فقط أن أخبرك بأنني سأغيب الغد كله ويوم الأحد.. وأذكرك بكارلوس..

- وهل ستقضين ليلة الغد في مكان ما.. أين؟

- آه.. لا.. سأعود ليلاً، وقد أتأخر. لكنني أتساءل بشأن كارلوس.. كان يجب أن يذهب لزيارة ابن عمه دان. لكن السنيورا هيرنانديز اتصلت بعد الظهر لتقول إن دان الصغير قد أصيب بالتهاب في الحنجرة والأفضل أن تلغى زيارة كارلوس.. وأصيب بخيبة أمل.. لذا..

ترددت فحثها: لذا؟

- سيكون وحيداً بائساً.. لذلك سوف آخذه معي يوم الأحد إذا كان هذا يساعد.. لأن كل من في الفيلا لديهم ترتيبات من نوع ما لعطلة الأسبوع.

- أنا ليس لدي أي شيء.. تفضلي بالجلوس يا سنيورينا؟؟

لامس ذراعها ولاحظت على الفور أن خطواتهما المتأنية أوصلتهما إلى الممر الموصل إلى عرائش العنب.. كان عند مدخل العرائش مقعد قديم، وأشار الكونت إليه.

تملكت غريتا أحاسيس فيها عبق عطر الحديقة المختفية بعباءة

الليل.. جعلها توتر مفاجيء تنظر إليه، فمن المستحيل ألا تشعر بجاذبية الكونت وبأنوثتها في جو كهذا.. بضيق وتوتر صرفت عنها الفكرة كما جاءت.. كم يمكن للخيال أن يجعل المرء أبلهاً؟

لم يجلس الكونت بعد أن جلست متصلبة على حافة المقعد الخشبي.. بل وقف ورفع قدمه على المقعد، وأسند ذراعه على ركبته، ونظر إليها: أنت امرأة شابة ضميرك حي للغاية يا آنسة تيرانت.. وأنا أقدر لك اهتمامك.. لكنني لن أتركك تفسدين عطلتك.

- لن أفسد شيئاً.. كنت أنوي أن أستقل القطار إلى الجبال.. لقد قيل لي إن القطار المعلق هو إثارة ينبغي ألا تفوتني.

- صحيح.. لسائح.. هل كنت تخططين لتجربة هذا القطار مع السيد سكوفيلد؟

هزت رأسها لتنفي بتأكيد: لا.. غداً أجل.. لكن ليس يوم الأحد. لذا فكرت أن..

قاطعها: ستذهبان في نزهة لرؤية المناظر غداً؟

- لا.. بل سيريني المزرعة.

بسط يده ونظر إليها: آه.. ثم تتناولان العشاء في منزله.. بعد التحرر التام من الرسميات التقليدية.. ولتسترجعا ذكرى الوطن والأهل، وتكتشفان اهتمامات مشتركة بينكما.. ثم يغازلك.

- لن يفعل.

ابتسم الكونت قليلاً ولمعت أسنانه البيضاء الناصعة: اغفري لي تكذيبي لك يا سنيورينا.. لكنك تضللين نفسك.. إذا صدقت ما تقولين!

ملست طية من فستانها: لكنني أصدق.

- وأنا أصدق الدليل الذي تراه عيني.

ارتفع رأسها بحدة: دليل.. يا سنيور؟

www.liilas.com doodlewitty.com

ـ لقد بدا لي كايل سكوفيلد الطيب وكأنه لا يصدق حظه الجيد الأسبوع الماضي..

فكرت بصدمة مفاجئة: سيدي الكونت يرى كثيراً! ذكرتها ملاحظته بحديث كايل وهما يرقصان، وذلك دعاها إلى أن تتذكر ذات الأمسية في حديقة الهاسيندرا.. واشتد ضغط فمها وضمت يديها إلى بعضهما أكثر وقد أزعجها إصرار الكونت أن تظل تحت المراقبة. على أي حال، ما شأنه؟

قالت بثبات: أنا واثقة أن هذا كل ما في الأمر.. والحديث عن عطلة الأسبوع الماضي يذكرني..

ـ نعم يا ستيورينا؟

استقام ليجلس بجوارها ويضع إحدى ساقيه فوق الأخرى برشاقة: ماذا عن عطلة الأسبوع الماضي؟

نظرت أمامها مباشرة وقالت بعفوية: ذكرت طلباً كنت تتمنى أن تطلبه مني يا سنيور.

ـ طلب؟ آه!

وفرقع بأصابعه.

ـ تذكرت.. كان هذا صفقة أريد أن نعقدها أليس كذلك؟ الجانب الآخر منها يخص ابن أختي.

صفقة! كارلوس! أحست بشيء من انخفاض الهمة وهي تنتظر: سيحين قريباً عيد ميلاده.. في الشهر القادم. لقد مات والداه قبل أسبوع واحد من موعد الاحتفال المحدد وقررنا لهذه الظروف تأجيله إلى ذكرى ميلاده لهذه السنة على الأقل..

صمت.. فأدارت غريتا رأسها: أنت حكيم جداً يا سنيور وتتفهم جيداً.. كيف أستطيع أن أساعد؟

ـ نظراً لوجودك بيننا، فكرت أن حفلة ميلاد على الطريقة الإنجليزية

ستكون شيئاً جديداً.. صديق لي استقدم مؤخراً فنياً إنكليزياً ليشرف على مصنع بقيمه. وأظن أن الإنجليزي جار لعائلته.. سندعو الأصدقاء الجدد، وسيساعد هذا على خلق الجو المناسب لحفلة الميلاد.

هزت رأسها: وترغب في وجودي للترجمة والإشراف على الأولاد؟

سأفعل بالطبع.

ـ بل أريدك أن تنظمي الحفل كله يا ستيورينا..

أجفلت: الحفل كله؟

ـ أجل.. أريدك أن ترتبي كل شيء: الطعام، وسائل الترفيه، وأي شيء آخر ضروري. أعطيك «كارت بلانش» وتعليمات إلى الخدم لينفذوا أي أمر تصدريه لهم.. بإختصار يا ستيورينا، تصوري نفسك مسئولة عن حفلة عيد ميلاد لطفل في السابعة في بلادك ثم نفذي النظرية.

ظلت صامتة وهو يتحرك بميل إلى الأمام لينظر في وجهها: ألا ترغبين في تنظيم هذا؟

ـ آه.. لا.. أعني نعم.. سأحب هذا. لكن هل أنت واثق من النجاح؟ أعني هل سيحبها الأولاد؟

ـ وهل لديك شك؟

أخذت نفساً عميقاً وابتسمت: حسناً.. قد يكون لكارلوس طريقته الخاصة لحفلته.

ـ ربما تكون هذه هي الطريقة الإنجليزية؟

ـ أجل.. والكثير يعتمد على الآباء طبعاً إذا كانوا من النوع المتفهم.. سيوفرون للأولاد الكثير من الطعام، ويبعدون كل الأدوات القابلة للكسر، ويتركون الأولاد يتمتعون على طريقتهم.

سادت لحظة صمت، وقد أحست فوراً بهالة من الإستهجان تحيط به.. فأضافت بسرعة: لكن هذا للكبار بعض الشيء.. وليس للصغار.

www.rewity.com

تراجع للوراء: على أي حال، لدينا الوقت لتفكري في الأمر ثم نناقشه بروية بعد يوم أو يومين.. سي؟

- سي سنيور.

- أود أن أسألك يا سنيوريتا إذا كان قد أزعجك تصرف السنيور غونزاغو السيء تلك الليلة؟

بدهشة، انتقلت بذهنها إلى ذكرى ليلة الفلامنغو: آه.. أجل.. قليلاً، في ذلك الوقت.. لكنني نسيت كل شيء الآن.

زم الكونت شفتيه: أنا لا أميل إلى نسيان الأمر بهذه البساطة.

أجفلت بوجوم: يا سنيور..! هل تلمح إلى أن تصرفي رخيص؟

لوح بيده في الهواء: لا.. ليس رخيصاً.. بل غبي ربما، وربما طائش وساذج بالتأكيد.. لكن ليس رخيصاً.

لم تستعد خطوط فمه المتصلبة ثناياها اللطيفة المعتادة، بالرغم من الانتقاد اللاذع الذي سمعته في لهجته.. وحاولت أن تقف.. فتلك لحظة مناسبة بالتأكيد لإبداء التحفظ!.. لكن التحفظ تلاشى أمام ضغط أصابعه الفولاذية حول معصمها.

- لا يا سنيوريتا.. لن تهربي.. أنا أفشل دائماً في فهم ردود أفعالك. أنت تستسلمين لأجرأ أنواع التحرش في حلبة الرقص.. وربما خوفاً من الفضيحة.. مع ذلك فأنت تقرأين تفسيرات غير لطيفة في ملاحظات بريئة ولو غاضبة، فلماذا؟

أحست بالخجل: أنا آسفة.. ما قصدت ذلك.. لكنني فقط أفضل أن أنسى، وهذا كل شيء.

- تنسين أنك خدعت؟

- شيء كهذا.

وتنهدت.. ثم: أعرف ما هو رأيك في مثل هذه الأمور.. و.. وأكره أن تظن أنني شجعته وسأكون صادقة معك.. و..

- وجودك في حد ذاته تشجيع لمثل هذا النوع.

وترك معصمها فجأة: كما شرحت لك من قبل.. مثل ذلك الموقف نادراً ما يحدث لإحدى نساء بلدي.. فتاة من عائلة محترمة لن تعرّض نفسها لهذا الموقف مع شخص لا تعرفه من قبل.. وعندما تتزوج سيتأكد زوجها من عدم تعرضها لمثل هذا الحرج.. لهذا تتعرض الفتيات الأجنبيات إلى اهتمامات رجال مثل غونزاغو.

قالت بسرعة وهدوء: أجل.. أعرف ما تحاول تفسيره.. ونحن نعرف أن هناك أيضاً رجال في مثل كياستك وشهامتك..

قاطعها بوقار: شكراً لك يا سنيورا!

- لكن ليس من السهل دائماً التمييز بين النوعين إذا كان المرء بعيداً عن بلاده.. ويرجع ذلك لتلك الهالة من السحر اللاتيني!

- هل هذا هو رأيك فينا؟

أشاحت بوجهها: على أي حال نفضل تصرفنا هكذا.. أن نكون أحراراً في اكتشاف أنواع الناس بأنفسنا.. بهذه الطريقة نتعلم أن نحكم.

ساد صمت قصير وأدركت عدم اقتناعه برغم اهتمامه.. فاستدارت تقول: أترى يا سنيور.. ما حدث لي كان نوعاً من الدرس، علمني الحذر في المستقبل. سيد غونزاغو كان ساحراً في البداية.. ويسلب اللب أيضاً! لكن سرعان ما تلاشى هذا.. فكيف تعرف بما يحدث لو أنه تودد لفتاة بريئة مثل ابنة أخيك فتصدق ذلك السحر؟ ستتزوجه بالتأكيد، ثم تكتشف أنه زير نساء ولن يكون مخلصاً لها، ولن يكون جذاباً حينئذٍ، وتظل تعيسة طول حياتها.. ولن تجد فيه الحبيب الذي يسعدها.

تحرك في جلسته، وتفرس بها عن قرب أكثر: إذن.. فأنتم تفضلون علاقات حرة بين الجنسين.

- أجل.. بطريقة ما. وهذا ما أحاول تفسيره.. إذا عقد شاب وفتاة

www.rewity.com

كثيراً من الصداقات يساعدهما هذا في معرفة الطبيعة البشرية، ويكسبهما الخبرة في اختيار شريك الحياة المناسب. دراسة الطباع مهمة للغاية في إقامة علاقة سعيدة.. ولذلك فاكتشاف تلك الاختلافات أفضل كثيراً قبل فوات الأوان.

ارتفع حاجبا الكونت السوداوان فوق عينين مفكرتين: نعم.. أظن أنني أتبع خط أفكارك.. ومن الطبيعي أن يغازل الرجل فتاة ويأسر اهتمامها، بغير مسئولية؟

لم يكن هذا قصدها، وقطبت.. وتولد في ذهنها شك بأنه يتسلى من وراء مظهره الوقور.. ولن يتورع عن تشجيعها لتكشف له نواياها.. وقالت بسخط: ليس الأمر بالشكل الذي تصوره.. فالفتاة تفهم هذا تماماً عندما يطلب الشاب منها الخروج معه..

ـ هذا هو الموعد.. أظن ذلك؟

ـ يواعدها، وربما يقدم إليها هدايا صغيرة، كالحلوى، أو التسجيلات.. لكن هذا لا يعني أنه يصبح على الفور من ممتلكاتها الخاصة، وهي كذلك. فكلاهما يظل حراً في إقامة علاقات أخرى لكنهما ينفصلان عادة عن دائرة أصدقائهما ويتواعدان على حدة لفترة ما، إذا تعلقا ببعضهما كثيراً..

قاطعها بوقار شديد: يبدو أن هناك الكثير من «لكن» و «إذا» في مثل هذه العلاقات غير المسئولة.. آسف لمقاطعتك.. أرجوك استمري فهذا شيء مثير.

نظرت إليه بعصبية: لكن هذا لا يعني بالتالي أن تنتهي علاقتهما بالزواج تلقائياً.. حتى ولو قررا إعلان الخطوبة، ليكتشفا فيما بعد أنهما قد ارتكبا غلطة، فهما حرّان في فسخ الخطوبة.. فهذا قرارهما حتى ولو أزعج هذا الأهل.

وضع ذراعه على مؤخرة المقعد: فهمت.. لكن ماذا عن أهل

الفتاة؟ هل يرفضون؟

ـ يرفضون؟ ولماذا؟ لن يعترض الأهل لأنهم يحبون ابنتهم.. فهم يريدون لها السعادة.

ـ لا.. لقد أسأت فهمي يا سنيورينا.. ألا يعترض الأهل على التحرشات التي تتعرض لها ابنتهم من رفاقها؟

كان حديثه يخفي تحذيراً غامضاً.. وقالت بثبات: أبداً.. الوالدان لا ينظران إلى المسألة من هذه الزاوية إذا تعرفا على الشاب لأنهما يثقان بابنتهما.

ساد صمت عميق، لا يقطعه سوى تحرك أوراق الشجر.. كانت السماء صافية للغاية تشع بالنجوم، والظلال تسترخي بوضوح.. اختلست نظرة جانبية، واستطاعت تحديد جانب وجه الكونت النحيل بوضوح تام.. كان يفكر، لا يتحرك، ويتأمل الليل طويلاً قبل أن يستدير إليها وكأنه توصل إلى قرار ما. وقال ببرود: فهمت الآن.

ابتسمت: أرجو أن أكون قد ساعدتك لتدرك وجهة نظرنا.. يا سنيور.

هز رأسه: لقد أدركت أن أي شاب وفتاة قد يلتقيان صدفة كغريبين تماماً.. ربما في مقهى أو مسرح ودون أن يقدمهما أحد لبعضهما.. ثم يكون للرجل حرية مطلقة أن يتقدم إليها إذا أحس برغبته فيها.. ولن تعترض الفتاة إذا أحست بالتجاوب معه.. كل هذا باسم التعليم والحكم على الطبيعة البشرية.. لو أنه مد يده.. هكذا.. ولامسها.. أو داعبها.. هكذا..

تسللت أصابعه الفولاذية الدافئة إلى خدها قبل أن تدرك نواياه. وأدارت ذقنها حتى التقت بنظراته لتأسرها كما يأسر معصمها أصابعه.

وجاء صوته ناعماً واضحاً: وقد يقترب منها أكثر لبعانقها..

سمعت غربتا شهيق أنفاسها وهي تتحرك لتكسر السحر الخطير..

www.rewity.com

على الفور تركها وتراجع.

ـ لقد تجاوزت القدر المسموح به؟ هناك على ما يبدو حدود غير مرئية على المرء أن يجتازها بحذر؟

ابتسمت: أظن أنك لا تفهم يا سنيور. نحن لا نغازل الغريب عندما نلقاه لأول وهلة.

قال برقة: لا أقول إننا لا زلنا غرباء.

ـ آه.. لا.. ليس هذا بالضبط..

وتساءلت في نفسها كيف تبعد نفسها عن هذا المأزق، حاولت أن تضحك بخفة: نحن نلتزم بالعقل دائماً ونحاول كبح جماح عواطفنا.

عندما تحدثت، أدركت مدى سخفها.. وندمت على ذلك بمرارة.. فقد لمعت عينا الكونت بقبول لتحديها.. ورد: ومن هو بارد الدم الآن؟

هذه المرة لم تستطع كسر السحر الخطير بسهولة، فهزت رأسها بعجز: ليست المسألة برودة دم.. وإنما الأمر يرتبط بالتعقل.

بدا عليه العجب: تعقل؟ هل تؤمنين حقاً بمثل هذه النظرية الباردة؟

حاولت أن تجادل في موضوع آخر: لكنها ليست نظرية! إنها..

لكن حركته العصبية صرفت النظر عن احتجاجها الواهي.

ـ أيتها البلهاء! أتؤمنين حقاً بقدرتك على العبث والتحكم في عواطفك؟ أظن أنك لا تفهمين معنى الكلمة!

وتلاشى إنكارها في شهقة إثر مقاطعة الكونت لها وصدمتها مرة أخرى تلك اللمسة الحساسة المخملية، ثم ضاعت في قوة عناقه المحطم.. واجتاحتها بجنون أحاسيس جديدة.. ثم ضاعت تلك الأحاسيس الجديدة في محيط النسيان الذي لا وجود لشيء فيه ما عداه وعداها.

في الوقت الذي حاولت فيه السعي لاستعادة أحاسيسها المشتتة،

تراجع محدقاً في وجهها البيضاوي المرتجف الشاحب.. ولمع بريق الطمأنينة في عينيه السوداوين وابتسم بجاذبية: أرغب في أن أعلمك معنى كلامك.. يا آنستي الإنجليزية الصغيرة الباردة.

كانت لا تزال ضمن أسره الدافىء.. واكتشفت غريتا ضعفاً منذراً بخطر يطغي على أطرافها.. وعمل عقلها بجنون.. اهربي.. ابقي.. احتجي! لماذا السؤال.. بلا إجابة؟ لماذا؟

ـ أنت ترتجفين! بالتأكيد عناقي لك ليس صدمة لا تحتمل؟

تراجعت عنه تشيح بوجهها: أنا.. لم أتوقع منك صدمة مثل هذه يا سنيور.. أنا..

ـ أنا؟ وهل تظنين أنني لا أتأثر بنداء الأحاسيس يا سنيوريتا؟

بدا لها من الأمان أكثر أن توافق.. فهزت رأسها بغباء.. فواصل: أم أنني محصن ضد الجاذبية الأنثوية.. خاصة لو كانت لفتاة ساحرة متواضعة، لديها الجرأة لتلقي عليّ محاضرة بكل وقار، بشأن سلوكي غير الحضاري في مجتمعات هذا العصر؟

وقفت مذعورة: آه.. لكنني ما فعلت هذا!

وقف بدوره ووضع يده على كتفيها من الخلف: لكنني أظن أنك كنت تفعلين.. وأظن أنك لم تتوقعي رداً سريعاً كهذا.

ـ لم أتوقع عرضاً فعلياً بمعنى الكلمة.

تمنت أن يتوقف قلبها عن خفقانه المجنون، والتفتت تواجه نظرته الساخرة.

ـ وأرجو أن تتذكر يا سنيور.. أن.. آه..

انتهت كلماتها بشهقة، تردد مثلها من وراء الكونت.. كان الظلام حالكاً.. لكن غريتا لم تجد صعوبة في التعرف على استريلا ولا غضبها: لقد انتظرنا ربع ساعة! وهل نسيت.. رامون؟

استدار يواجهها، يحني رأسه قليلاً بتحية باردة مؤدبة.

www.rewity.com

ـ أعتذر يا سنيوريتا.. لم أكن أعرف.

ثم أوقف غريتا عن الهرب: لا.. يا سنيوريتا.. سأوصلك إلى الداخل.

تذمرت استريلا وهو يقودهما نحو التراس: ستتأخر كثيراً.

بالكاد سمعتها غريتا.. فقد أحست بشيء من التوتر يغزو رباطة جأشها المشتت أصلاً، وهي ترى الكونت يتجه إلى تيريستا المترقبة ويرفع يديها لشفتيه وهو يتمتم باعتذار.

كان دون غوميز البدين يقف في الخلف في حين ارتدى الثلاثة ثياب السهرة، وبدا جلياً أن الأربعة سيخرجون معاً لمناسبة اجتماعية.. قدم الكونت التحية للرجل ثم اعتذر بأنه مضطر لتغيير ثيابه.

بدا أنه نسي وجود غريتا، وابتسمت لتيريستا ابتسامة ود وانسحبت إلى الطابق العلوي لتتابع التأهب للحمام. وانقلبت الساعة الماضية إلى حلم غريب.. إلا أن الحلم لا يترك مثل هذه الآثار! ولا هذه الكراهية التي لا مبرر لها من استريلا.

لماذا جاء بها القدر في تلك اللحظة بالذات؟ وكم سمعت من ذلك الحديث؟ ثم اشتد ضغط فمها.. كم رأت استريلا؟

فجأة دست غريتا سدادة المغسلة في مكانها بقوة لا داعي لها. لا غرابة في هذا أبداً.. وعلى كل حال الكونت هو إنسان..

كان الوجه البيضاوي يشع في المرآة بلون زهري.. ودست رأسها تحت الماء وفتحت بجنون زجاجة الشامبو.. ثم سارعت لتبعد السائل عن عينيها ودفعت الفكرة بعيداً عن رأسها..

وماذا يهم لو رأت استريلا عناقهما الحميم؟

• • •

٧ ـ هل تؤمن بالسحر؟

عاد إلى غريتا إحساسها بالعودة إلى طبيعتها مع وصول كايل سكوفيلد في الصباح التالي.

مع تقدم النهار تحولت أحداث الليلة السابقة إلى شيء من الحلم رويداً رويداً.. بالرغم من ذلك أثرت فيها الذكرى بشعريرة سرية مسلية لشك الكونت في نوايا كايل.

بصفة عامة كانت تنبؤات الكونت صحيحة للغاية إلا شيئاً واحداً. فقد أراها كايل أجزاء من المزرعة إضافة إلى بعض الجياد الرائعة التي لم ترَ مثلها من قبل.. ومازحها قليلاً بنكات مرحة خلال وجبة طعام لذيذة في منزله المتواضع والمريح جداً.. وبعد أن جاءت مدبرة منزله بالقهوة وانصرفت، دعاها إلى الانضمام لحديثه عن حياته ورحلاته، لكنه لم يعبث مرة واحدة خلال اليوم الطويل.

ابتسمت بإحساس دافيء وهي تفكر أثناء جلوسها بصمت بجانب كايل في طريق العودة أن للكونت طريقة تفكير ملتوية..

ـ لماذا تبتسمين؟

أعاد صوت كايل غريتا لما يدور حولها وأدركت أن السيارة توقفت. رأت خطوط الفيلا منعكسة أمام صفحة السماء المخملية، فاستدارت إلى الرجل الذي يجلس وراء عجلة القيادة.. فهز رأسه: لا أظن أنك قد سمعت كلمة مما ذكرته!

www.liilas.com

ـ أنا آسفة.. ماذا قلت يا كايل؟

وجهت إليه ابتسامة اعتذار فسلبته لبه: لا شيء مهم.. كنت أسأل عن ترتيباتك للغد؟

قالت له، فرفع حاجبيه: هل تمانعين في انضمامي إليك؟ أنا دليل خبير.

ترددت ثم ضحكت: وهل تخاف أن أضيع في الجبال؟

ـ الاستكشاف الثنائي أكثر مرحاً.. اتفقنا إذن..

فتح لها باب السيارة: سأوصلك إلى المنزل.

تلاشى احتجاجها مع صوت إغلاق الباب، ووضع يده تحت مرفقها وهما يسيران على الممر المغطى بالأشجار حتى باب الشرفة المسقوفة. عندئذٍ توقف كايل ينظر إليها لحظات، وهو لا يزال يمسك ذراعها بيده الدافئة. فاختبرت لحظة شك.. لماذا يتوقع الرجال مكافأة ما لإخراجهم فتاة؟ شعرت فجأة بأنها لا تريد منه أي شيء ولا حتى قُبلة وداع رقيقة، ثم أحست أن يدها أصبحت في قبضته الدافئة وسمعته يقول بخفة: لا.. لا أظن أنك فتاة تهتم بأن تكون تحية المساء قُبلة.. هل أنا على صواب؟

نظرت بدهشة.. وأضاف بنعومة: إلا إذا شعرت بالإهانة؟

ضحكت: آه يا كايل.. كم أنت غبي! شكراً لك اليوم الرائع الذي قضيناه سوياً.

رفعت نفسها باندفاع لتعانقه.

ابتسمت وهي تركض بخفة في طريقها إلى غرفتها. كانت الفيلا الكبيرة صامتة وكأنها مهجورة، وصاحت إجفالاً بصوت منخفض عندما انطفأ ضوء الممر مع وصولها إلى أعلى السلم.

كانت كارلوتا هي المسؤولة عن هذا، تغلق باب غرفتها لتوها.. وظهرت لتنظر بفضول نحو غريتا.

ـ أنا آسفة.. لم أسمع وقع قدميك.. لكنني لم أستطع النوم والأنوار مضاءة، هل أمضيت يوماً سعيداً؟

ـ بل رائعاً.

ـ إن السنيور الإنجليزي جذاب جداً، أليس كذلك؟

ـ أجل.. فهو أنيق المظهر.

لكن كارلوتا هزت رأسها وقالت حالمة: لا أعني مظهره فحسب بل الطريقة التي يتعامل بها مع امرأة كندٍ له.. ومع ذلك يحميها كما ينبغي أن يفعل المرافق.

قالت غريتا بدهشة: لم أكن أدرك أنك تعرفين كايل بهذه الدرجة لتلاحظي كل هذا..

تنهدت وهي تشعر برغبة كارلوتا في تبادل الأسرار، واستندت إلى إطار الباب بابتسامة: هل حدث اليوم شيء مثير هنا؟

أغمضت كارلوتا عينيها وتنهدت بعمق: لم يحدث هنا شيء اليوم، فقد كان يوماً مملاً.

ـ بهذا السوء؟

ـ كان كارلوس مكتئباً لأنه لم يتمكن من زيارة دان، واضطررت إلى تسليته.. وكان خالي سيء المزاج كذلك. ثم زارتنا استريلا وتيريستا لرؤية ايزابيلا.. حتى تيريستا كانت في مزاج سيء.

أخفضت كارلوتا صوتها، واسترسلت: إنها تتحدث عن عودتها لأوروبا وتبوأ مركز في المؤسسة التي كان يعمل فيها زوجها.. والجميع يحاولون إقناعها بالتراجع عن ذلك.

ـ لا يوجد ما يمنعها من العودة إلى أوروبا إذا كانت هذه رغبتها.. لماذا لا تقبل بوظيفة في مؤسسة زوجها الراحل؟ على أي حال، لا شك أن لها صداقات كثيرة هناك وأظن أنها فكرة جيدة.

ـ أجل.. لكن هناك دون غوميز.. الذي تحاول الهرب منه.

www.liilas.com

وضحكت كارلوتا.. ولم تهمس غريتا كما فعلت الفتاة: لست مندهشة لهذا، فالعائلة تصر على دفعها بين ذراعي أي رجل.

هزت كارلوتا رأسها بحزن: بعد ذلك، يمكن لأستريلا.. أن تحوّل إغراءها لخالي وضميرها مرتاح.

قالت غريتا بحدة: يرجع الأمر إلى خالك بالتأكيد ليقرر من يقوم بالإغراء.

ضحكت كارلوتا بصوت منخفض: آه.. لكن لنا وسائلنا لمساعدتهم في اتخاذ القرار.. هل تظنين أننا لا نخادع أبداً؟

استقامت غريتا وبدأت تتحرك لتبتعد.

- لا.. لا أظن هذا.. لكن إذا كان يجب أن يتزوج إحداهما، فسيكون أكثر حكمة لو اختار تيريستا.

رفعت كارلوتا رأسها بحزن: أظن ذلك أيضاً.. فمن أجلها قد تتنحى استريلا، لكن ليس من أجل سواها.. كان يجب أن تكون هي الأخت الكبرى.. إنها مستبدة.. لكن خالي سوف يروضها ويكبح جماحها.

لكن غريتا لم ترتح للفكرة.. فقطبت وقررت أن تضع نهاية للحديث عن توقعات زواج استريلا والكونت.. وقالت كارلوتا فجأة: تحدثنا عنك اليوم بعد الظهر.

- حقاً!

- كانتا تأملان أن تنجذبي إلى سنيور سكوفيلد وينجذب إليك.. استريلا كانت واثقة أنه منجذب إليك.

مالت إلى الأمام وكأنها تسرّ بشيء: إنهما تخططان لدعوتكما إلى الانضمام لنا في «الفيستا».. أنت لم تشاهدي «فيستا» من قبل، صحيح؟ أوه.. إنها مناسبة رائعة.. خاصة للأحبة.. حين..

تحركت غريتا فجأة لتقاطعها: الوقت متأخر..

أخفت غضبها إلى أن ودعت كارلوتا.. وعندما وصلت إلى غرفتها كانت تغلي سخطاً.

كيف تجرؤان على جمع اسمها مع كايل؟ تلك فكرة سخيفة لأنها تعرفه منذ فترة وجيزة ولم تخرج معه سوى مرة واحدة! ماذا سيقول كايل لو سمع هذا؟ على الأرجح سيضحك لكن الأمر ليس مضحكاً.. والكونت بالتأكيد لم يشارك بهذا التفكير الغبي حول..

فجأة تمنت لو لم تتفق على قضاء بقية العطلة معه.. فذلك سيمنحهم بالتأكيد مزيداً من الاقتناع.. لماذا لا يهتمون بقناعاتهم الخاصة ولا يطبقونها عليها؟

جعلتها موجة سخط تخلع سترتها وتصفق باب خزانتها.. لماذا القلق هكذا؟ ليس من حق الكونت أو أصدقائه أن يقرنوا اسمها باسم أحد.. ألم يحذرها يوماً من التورط في الخلافات العائلية؟ كان يجب أن يحذرها من استخدامهم حريتهم في توريطها في شائعاتهم بشأن الزواج..

لكن حين أصبحت مع كايل، لم تستطع أن تخبره بالأمر.. وبدلاً من التسلية المشتركة التي تصورتها، كان هناك اكتئاب يخمد روحها المعنوية وهي تصعد القطار المعلق مع كايل.. على أي حال، مع بداية الرحلة، تبدل اهتمامها عندما فرضت الجبال سحرها.

كانت القرى الصغيرة التي يمر بها القطار المعلق رائعة.. وأيضاً التسلق عالياً إلى قلب الأنديز يقطع الأنفاس، ومرعب أحياناً.

عند كل منعطف قوي، كانت غريتا تميل نحو كايل وتمتد يده لتمسك بها، وانتاب غريتا الدوار حين نظرت إلى المئة قدم هبوطاً إلى الأسفل.

أمسك كايل يدها مطمئناً، وقال بمرح: لا شيء أعلى من تلك القمة.. للبيرو أعلى محطة قطار ركاب في العالم.. يقدمون

www.rewity.com

الأوكسجين لإنعاش من يصل إلى هناك حياً من بين الركاب.

- كابل!

- لا تقلقي يا حبيبتي، فلن نذهب اليوم إلى هناك.. فالوصول إلى القمة يستغرق معظم الوقت خلال اليوم..

ساعدها لتنزل من القطار، وتوقف ليختار زهرة من على جانب الطريق.. وضعها خلف أذنها، لكنها وقعت فوراً.. فالتقطتها ضاحكة وهي تفتش في حقيبتها عن دبوس تثبت الزهرة في باقة فستانها: إلى أين ستذهب؟

- سنسير قليلاً في البداية.. ثم نذهب إلى السوق عندما نحتاج لبعض الطعام.. أعرف مكاناً رائعاً نستمتع فيه بتناول الطعام.

لم تحضرها لهجته الحماسية لروعة المناظر التي تنتظرها حين خرجا من منتصف الطريق الترابية إلى ممر آخر ضيق يلتف صعوداً على جانب التل ويطل على الوادي كله. ولأول مرة رأت غرينا الهنود الحمر بملابسهم التقليدية الزاهية أثناء عودتهم من الكنيسة، وهم يقطعون الجسر قرب الكنيسة ثم يهبطون نزولاً إلى القرية.

كان الجو صحواً وصافياً، وبدت الألوان مشرقة. لكن القمم البعيدة في الخلف كانت هي سبب إحساسها الغامر بالرهبة. وشردت نظراتها نحو المروج الخضراء الشديدة الترتيب المزروعة بالذرة والقمح، المكتسية بجهد وصبر من التربة الضحلة القاسية.. وأدركت مدى صعوبة الحياة لهنود الأنديز هنا.

لامس كابل ذراعها فاستدارت لتمسك بيده المرشدة وتسير في طريقها هبوطاً في الممر المنحدر الوعر.. مسيرة قصيرة أوصلتهما إلى القرية ثم إلى الباحة الرئيسية التي هي عصب حياة القرية وتجولا بكسل لمدة ساعة في السوق، واختارت قطعة فضية على شكل قلادة ترسلها إلى أمها، وبعد جدال قصير سمحت لكابل أن يشتري لها «بونشو» أو ما

يشبه العباءة المزينة الأطراف باللون القرمزي، وقال ضاحكاً: الآن ستشعرين وكأنك من أهل البلاد.

ورماها على كتفيها، ثم واصلا تحركهما..

كان كابل قد جاء معه بسلة طعام ورمق غرينا بنظرة فهزت رأسها موافقة، وهي تحس بالعطش والجوع.

وجدا مكاناً معزولاً قرب الممر الملتوي وفتحا الغداء الذي أعدته من أجلهما مدبرة منزله..

أفرغ كوبين من العصير ناولها أحدهما ورفع الآخر.

- نشرب نخب ماذا؟ الجبال؟ البلاد القديمة؟ أم لنا؟

تلفظ الكلمة الأخيرة بصوت منخفض له معنى، أو هكذا تراءى لغرينا.. فجأة استعادت كل الأفكار المزعجة التي راودتها في الصباح.. فأطرقت ببصرها وقال كابل: ما الأمر؟

أفضل حل هو أن تضحك على الأمر، لكنها لم تستطع مواجهة نظراته. كيف تقول لرجل أن الناس تقرن اسمه باسم فتاة قابلها مرتين في يومين متتاليين فقط؟ وأن أولئك الناس لا يخفون سراً بغرض الجمع بينهما؟

ابتسمت على مضض: لا شيء في الأمر أيها الأحمق.. إنه يوم ممتاز.

بدا جاداً على غير عادة: متأكدة؟ لقد لاحظت هذا الصباح أن شيئاً يقلقك، وظننت أنني أتخيل ولم أعد واثقاً الآن من تخيلاتي.

- إنه مزاجي الصباحي المعتاد.. ليس الأمر بيدي.

لم تسترخ تعبيرات وجهه، واتكأ للوراء على مرفقه يحدق فيها ملياً: هل أنت سعيدة حقاً هنا؟

- هنا؟ أجل طبعاً أنا سعيدة.. البلاد ساحرة وهناك أشياء كثيرة أراها وأكتشفها.

www.rewity.com

زم شفتيه: لم أقصد هذا.. بل قصدت عملك.. هل يعاملونك بشكل لائق؟

عادت إليها دهشتها: حتى الآن، لا أستطيع التذمر.. لكن لماذا تسأل؟

هز كتفه: لا زلت صغيرة السن.. ولا أحب التفكير بأن الأمور لا تسير على ما يرام كما كنت تأملين.

تأثرت غريتا باهتمامه بها.. قالت بصوت منخفض: يسعدني أن تهتم. لكن كل شيء على ما يرام، وهم لا يختلفون كثيراً عنا إلا في مسألة التقاليد.

قاطعها فجأة: لا تخدعي نفسك.. لن تفهمي بمثل هذه البساطة عمق التفكير اللاتيني.. حتى لو كنت حكيمة..

لاذ بالصمت فور سماعه أصواتاً، وتطلعت غريتا حولها.. سمعت أصوات أناس يتقدمون، ثم أجفلت بوجوم.. كان صوت الولد يرن بوضوح في السكون ولا يمكنها أن تخطئه، وكان ساخطاً بحدة. لكن هذا صحيح! أقول لك إنها السنيوريتا تيراتا! فهي مع السنيور سكوفيلد.. ووراء هذا المنعطف سترى أنني..

ظهر رأس كارلوس الأسود الصغير من فوق شجيرات فضية الأوراق، ورأته غريتا.. فتوقف وبدا حائراً بين الركض لتحيتها والبقاء حيث هو، وتفوق إحساسه الأخير.

التفت صائحاً نحو الغرباء المتقدمين ببطء: إنها هي! لقد قلت لك تيا.. إنهما هنا!

ثم انطلق نحو غريتا وكايل، وبدأ بسيل من الأسئلة.. أجاب كايل بشغف وصبر، لكن ردود غريتا كانت آلية وراقبت الطيف الطويل للكونت وهو يظهر أمامها يمد يده لمساعدة تيريستا واستريلا على التوالي وهما تتجاوزان الحافة الضيقة للممر.. بعد ذلك تحرك ليمر نحو

الفسحة الصغيرة، حيث كانت أغراض النزهة لا تزال مفتوحة تنتظر إعادة توضيبها.

لماذا قرر تلك النزهة وفي ذات اليوم؟ وبكل تأكيد هذه ليست نزهة من النوع الذي قد تختاره تيريستا أو استريلا.

أحست بنظرة الكونت عليها.. لاحظت استهجاناً متحفظاً في عمق عينيه السوداوين.. فتصاعد الاحمرار الدافىء إلى وجنتيها، وأدارت وجهها جانباً.

ابتسمت لها استريلا ببرود: يسعدني أنك وجدت كايل ليريك البلاد. ليس من المستساغ أن يتجول المرء وحده في بلاد غريبة.

تدخل كايل بحزم بدا مبالغاً فيه: بل يسعدني أنا لأنني وجدتها لأتجول معها.

ثم نظر إلى كارلوس المطالب باهتمامه مبتسماً: ما الأمر أميغو؟

- إنها حفلة عيد ميلادي.. ستتلقى دعوة رسمية.. لكنني أرجو..

وأخذه كارلوس على حدة ليشرح له. ابتسمت استريلا مجدداً.

- من المؤسف أن تكون ليما بعيدة لدرجة لا تساعد كايل على مقابلتك.. ولا أرى أي مانع أن تظل معنا لليلة لو شئت قضاء عطلة أسبوع طويلة في الريف.. أليست هذه فكرة رائعة يا تيريستا؟

أكدت تيريستا: أهلاً ومرحباً بك.

لكن لهجتها كانت آلية.. وتسمرت عيناها على عباءة البونشو، ذات الأطراف الحمراء المنبسطة على الأرض قرب سلة الطعام..

رفعت غريتا نظرها لتلتقي بنظر الكونت مجدداً، وبدا صمته يكشف كل شيء أسرت لها به كارلوتا.. ولم تستطع أن تعرف بماذا يفكر، وفجأة عاد الاحمرار المزعج إلى وجهها.. تكور فمها بشدة واستدارت، تتمتم الشكر لتيريستا على دعوتها قبل أن تجمع احتياجات طعام النزهة.

أخذت الأطباق والأكواب لتغسلها فوقع ظل فوق المياه المترقرقة.

www.rewity.com

ـ لماذا أنت حزينة؟

رفعت رأسها إليه ولمحت تيريستا تجلس وراءه بجانب كايل، وكارلوس يمزح بينما وقفت استريلا تراقب.

ـ لست حزينة أبداً يا ستيور.. ولماذا الحزن؟

ـ سؤال.. بسؤال.. لا تقلقي، فسرعان ما أزيل عنك التطفل وأحاول أن أصرف انتباه ابن أختي إلى مكان آخر.

غسلت الأكواب بعناية وهي تقول: الأمر لا يعد تطفلاً على الإطلاق.. نحن نرحب بانضمام كارلوس اليوم إلينا، أظن أنني أوضحت لك هذا قبل يومين.

ـ آه.. أجل.. لكن الظروف تغيرت منذ ذلك اليوم.

قالت بيرود: أبداً.. كارلوس يحب صحبة كايل..

ـ ربما.. لكنه ترتيب غير مناسب. وأظن أنني أوضحت رغباتي في هذا الصدد.

استدار ينادي كارلوس بحدة. لكنه استجاب بفتور: سي.. تعال وانظر.

وركز من جديد على شيء عبر الوادي. ولحق الجميع بإشارة الولد الصغير.

قال كايل شيئاً.. وضحكت تيريستا بنعومة، ثم أطلق كارلوس تعليقاً لم تفهمه غريتا، لكنه جلب الابتسامات إلى وجوه الثلاثي.. تبعه تعليق ساخط من الكونت.. وتحرك ووضع يده على كتف كارلوس.. ولاذ الولد بالصمت.

ربطت غريتا غطاء سلة الطعام.. ثم استقامت تتحرك ببطء إلى السياج لترى ما الذي شد اهتمامهم جميعاً. من هذا المكان الاستراتيجي، يمكن رؤية الوادي ممتداً في الأسفل، حتى حدوده الرمادية والبيضاء والتي تحتضن القرية وتظهر باحة السوق.. اتكأت

غريتا بيديها على السياج، واستسلمت لحالتها المزاجية الساخطة.. تمنت لو أن المجموعة لم تأت إلى هنا، ولم ترها مع كايل.. ولم يعرفوا أنه اشترى لها «البونشو».. لمح الكونت على صدرها زهرة، وهو يدرك بغير شك أن الفتيات لا يقطفن الزهور لأنفسهن.. لكن ما الذي يهمها بحق السماء لو لاحظ هذا؟ ثم أجفلت خارجة من تفكيرها على وميض ساطع.. ثم سطع وميض آخر في ذات النقطة وأدركت أنها لا يمكن أن تكون سيارة، ثم عاد الوميض مجدداً.. هذه المرة سلسلة متواصلة تسبب الدوار، وصاحت: لا شك أن هذه مرآة!

مال كايل إلى الأمام ينظر إليها مبتسماً: إنه صبي هندي يحاول جذب اهتمام الفتاة التي اختارها.. أنت لا ترينها الآن، لكنها موجودة بقربه..

قالت تيريستا بصوتها الهادىء اللطيف: سيقلب لها قبعتها من الداخل إلى الخارج حين ترد عليه.. ثم يصنعان نموذجاً مصغراً للمنزل الذي ينويان إنشائه، ويأخذانه إلى الكنيسة ليضعانه في مكان معد لأمثاله.

قال كايل: هذا صحيح.. ويضيفان إليه تماثيل بعدد الأولاد الذين يرغبان في إنجابهم، وعدد الماشية التي ستجلب لهما الازدهار.. وسيزرعان الذرة حول كل هذا.. فإذا نما الزرع وترعرع، ستتحقق رغباتهما أما لو توقفت عن النمو..

وفتح يديه وبسط راحتيه إلى الأعلى.

علقت استريلا بجفاء وهي تحدق في غريتا: يبدو أنك ضليع في خرافات «الانديز».. هل جئت بمرآتك استعداداً؟

ردت غريتا: مجرد مرآة حقيبة صغيرة.. مثل التي معك.

وابتهجت في سرها عندما رأت الابتسامة على وجه استريلا.. وأجفلت فجأة لإحساسها باقتراب الكونت من كتفها، متأكدة أن تعليقاً

www.rewity.com

ساخراً سيكون من نصيبها.. لكن كايل قال بسرعة: انظروا.. هاهي.. وهي تعطيه الرد.

رأت غريتا تحرك الفتاة واللمعان الأزرق لعباءة الفتاة الهندية «البونشو» وتنورتها الحمراء القاتمة.

تابع كايل حديثه: ستهرب منه الآن.. وسيلاحقها، ثم سيحاول انتزاع قبعتها أو منديل رأسها.. وعندما ينجح، لن تستطيع الهرب منه.. امتلاكه لشيء منها لامس شعرها يعطيه السلطة عليها..

الآن استطاعت غريتا رؤية الفتاة الهندية بوضوح.. وكما تكهن كايل، كانت تركض على سفح التلة صعوداً.. وكان الصبي يقفز فوق السفح.. وسرعان ما ضاقت المسافة بينه وبين طريدته بسبب خطواته السريعة.. ثم انقلب فرح الفتاة وضحكاتها إلى عويل ألم بعد أن علقت قدمها في طية تنورتها الطويلة وانبطحت أرضاً.

تعالت صيحة الفتى المنتصرة في الوادي، وما هي إلا لحظات حتى أمسك بقبعتها الواسعة الأطراف وابتعد.. وأخذ يراقبها من مسافة آمنة وهي تلملم نفسها وتقف وتستدير نحوه بارتباك.. وبدا للعيان أن الفتاة لم تبذل جهداً يذكر لاستعادة قبعتها.. وفي النهاية توجه الاثنان وكأنهما يتراقصان هبوطاً من فوق التل نحو القرية.. لإبلاغ الأهل والأصدقاء بخبر الخطوبة.

ـ إنها عادة حميدة!

استدارت غريتا بعد أن أثارها ذلك الصوت الغريب، والتقت نظرة الكونت الساخرة.. ثم استرسل ساخراً: أرى أن هذه الخرافات التقليدية تروق لك.

وهي ترى الجميع يلتفت إليها، لاقت نظرته الخفية العنيدة من وراء نظارته السوداء.

ـ ولمَ لا؟ وبما أنك سألت، أجل، تروق لي. وأظنها عادة

رومانسية جميلة.. وأتمنى عندما يزرعان الذرة لأولاد المستقبل ومنزلهما الصغير أن تنمو البذور قوية وطويلة.. وأرجو كذلك ألا تستعيد قبعتها! لكن بالطبع، أنت ستيور، ألا تؤمن بالسحر؟

نظر إليها لحظة صامتاً.. ولم تكشف خطوط فمه شيئاً من رد فعله الداخلي على ملاحظاتها الجريئة: كي أكسب امرأة يا ستيوريتا؟ أهذا ما تعنيه؟

لم ترد.. وسمح لنفسه بابتسامة باهتة: وهل الحب بمفهومه الكامل يعني نوعاً من السحر؟ هو سحر ستيوريتا للأسف لن يحافظ على سحره دائماً.

وهي تنظر إليه، أحنى لها رأسه ساخراً واستدار إلى الآخرين.. وقبل أن تدرك ما يحدث، كان قد أخذ مجموعته الصغيرة وغادر المكان وكأنه يفي بوعده السخيف: إزالة التطفل!

نسبت كايل لحظات قليلة وأراحت يديها على السياج تصغي إلى وقع الأقدام التي تطأ الحصى فوق الطريق الترابية ثم تتلاشى بالتدريج نحو القرية.. وساد الصمت..

فجأة.. بدا الوادي خالياً.

* * *

www.rewity.com

٨ ـ الحب علّمها الكذب!

خلال الأيام التالية انشغلت غريتا كثيراً بالتحضيرات الأولية لمناسبة يوم ميلاد كارلوس وقد حظي هذا الأمر باهتمام كل من في المنزل، من دونا إيزابيلا حتى مانويلا الخادمة الصغيرة.

وقالت دونا إيزابيلا حين دخلت غريتا عليها تسألها المشورة بشأن الدعوات: سوف يطلب هذا كما كل سنة.

هنا بدأت المشكلة الأولى.. فقد طلب كارلوس دعوات رسمية ومطبوعة.. واشترط أن تطبع بالإنجليزية.. وحاولوا عبثاً مناقشته في الأمر، لكنه رفض أن يصغي.

قررت دونا ايزابيلا أن الوقت قد أزف لينتهي الجدال.. فقالت مع نظرة حب إلى كارلوس الذي تميل إلى تدليله لدرجة الإفساد: سأطلب أن تطبع البطاقات.

لكن غريتا لم تجد من يقدر على طباعة الكمية المطلوبة في الوقت القصير المتبقي.. وعادت بعد ظهر ذلك اليوم مرهقة بعد جولة تسوّق في البلدة، وباغتتها سيارة الكونت في لحظة وصولها إلى الطريق الداخلية للفيلا.

نظر إلى مشترياتها المتعدّدة وقد احمر وجهها بتأثير الحرارة، وقال بحدة: ألم تستعملي السيارة يا سنيوريتا؟

وأخذ أكياس المشتريات واللفائف من ذراعيها المتعبتين.. فتنهدت

ارتياحاً: لا يا سنيور.. لقد ذهبت بالأتوبيس.

ـ لا أتوقع منك استخدام وسيلة نقل عامة في وقت يوجد فيه سيارة خاصة للاستخدام المنزلي.

ـ لكنني أستقل وسائل النقل العامة للذهاب إلى عملي في موطني يا سنيور.. فلماذا لا أفعل ذلك هنا عند الضرورة؟ ثم إن ماريو ذهب اليوم إلى منزله مبكراً لأن زوجته مريضة.

قطب الكونت: أجل.. أذكر هذا.. يجب أن أستفسر عن حالتها، لكنك تعرفين القيادة يا سنيوريتا.

ـ أجل يا سنيور.

ـ إذن عليك استخدام السيارة الرينو في المستقبل.. لكن يجب أن تحذري السير على طرقاتنا.

ابتسمت وشكرته، ونظر إلى أكبر اللفائف.

ـ هل اشتريت تذكارات يا سنيوريتا؟

ـ لا.. إنها لحفلة كارلوس.. هدايا صغيرة ومكافآت للألعاب، وأشياء أخرى مختلفة.

وضعت حقيبة يدها فوق مقعد على التراس وأخذت أكبر اللفائف منه.

ـ هذه هدية ميلاده.. أريد أن أدخلها خلسة قبل أن يراها.. شكلها واضح فقد يعرفها.

تفرس الكونت بالخدين المحمرين والعينين المشعتين وهز رأسه: لن أستطيع أن أخمّن ما هي.. فهل لي مشاركتك السر؟

ـ طبعاً.. إنها طائرة فضية وزرقاء.. هل تظن أنه سيحبها؟ لم أعرف ماذا أشتري له.

ـ أنا متأكد أنها ستصبح كنزه المفضل.

ثم رفع حاجبيه متسائلاً: هل تسير التحضيرات وفق الخطط؟

www.rewity.com

ـ آه.. أجل.. ما عدا..

فجأة أصبح من اليسير عليها أن تفضي إليه بالصعوبة التي تواجهها، فقال: سأتدبر أمر هذا. أعطني ورقة عليها الأشياء الضرورية فوراً يا سنيوريتا.

ابتسم لصبحتها الفرحة. ولم تكن ابتسامة سخرية، ولا ذلك الأدب الذي يفتقد العمق والدفء.. وامتزجت الرقة بالابتسامة على قسماته القوية المتزمتة فكانت مدهشة، وأثارت في نفسها تجاوباً أخذ شكل طلب كان بعيداً جداً عن ذهنها قبل هذه الابتسامة الحلوة: أرجوك يا سنيور.. لماذا لا تنادني غريتا؟ الجميع هنا يناديني هكذا.

عندما انتهت من طلبها المتهور أحست بخديها يحترقان بلون متجدد.. سكت برهة، لكن تلك الابتسامة استمرت تلوي زوايا فمه، وهز رأسه: يسرني هذا.. يا غريتا.. والآن، اكتبي لي الكلمات المطلوب طباعتها.

أسرعت تبحث عن قلم وورقة. مصدر غريب، سري، صغير من السعادة يعطي الخفة لخطواتها.. فيما بعد، وهي تخفي مشترياتها عن العيون.. قارنت مزاجه الآن بمزاجه يوم الأحد السابق.. لماذا لا يستقر مزاجه؟ للكونت قدرة مجهولة على وخزها، والأكثر سخطاً أنه قادر على سلبها مقاومتها وجعلها تنسى أي مناسبة أخرى قد تكون مزعجة.

إنه السحر اللاتيني! بإمكانه إدارته كما يفتح صنبور ماء! لكن ينبغي ألا ينزعج كايل من هذا.. وعادت ذاكرتها إلى النزهة.

لقد كان كايل منطوياً في طريق عودته إلى ليما.. وانطلق بالسيارة عبر المدينة بلا هدف ثم توقف قرب تل «سان كريستوبل» ونظر إلى الأضواء المتلألئة في الجانب القديم من المدينة.. وقال فجأة: أتريدين العودة إلى الڤيلا مباشرة أو نتنزه بالسيارة؟

أحست بتوتره فوافقت.. وقال بحقد: عظيم! أشتاق للابتعاد قدر

الإمكان عن الأجواء اللاتينية ولو لليلة واحدة.

اتجه جنوباً يمر بشواطىء سياحية يسطع فوقها القمر على الساحل البعيد عن ليما.. ثم أطلق العنان للسيارة القوية لتنطلق على الطريق الرئيسي العريض.. كانت السرعة منعشة برغم أنها كانت توقف شعر الرأس أحياناً.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير حين أوصلها كايل أخيراً إلى الڤيلا.. وقال لها بمرح: إلى اللقاء يا حبيبتي.. نامي جيداً.

ولم يبدُ عليه أي انزعاج لعودته وحيداً إلى وادي ڤيردانو.. وتمتمت عالياً بقلق وهو يبتعد: أرجو ألا يقود السيارة بجنون على تلك الطريق.

اتصل بها كايل ليخبرها بسفره إلى ليما في رحلة عمل في نهاية الأسبوع، ويسألها لو كان بالإمكان أن يلتقيا لتناول الغداء.. وفكرت أن لا بأس بعد أن حل الكونت مشكلة بطاقات الدعوات..

تقرر تقديم وجبة طعام إنجليزية تماماً.. وسعدت كارلوتا لتطوع ميغيل بالمساعدة في برنامج الألعاب والتسلية.

أمضيا عدة أمسيات يجمعان أشياءاً خاصة لإخفائها في أماكن سرية، خاصة بلعبة البحث عن الكنز والتخطيط للإرشادات المحلية لتلك اللعبة، وفي صباح أحد الأيام قبل عشرة أيام من اليوم الموعود، اقتحمت كارلوتا غرفة غريتا، وانفجرت بغضب وبكاء.

في بداية الأمر أصغت إليها غريتا، غير واثقة من أنها تدرك ما تقوله كارلوتا.. لكن الكونت أرسل يطلبها بعد الفطور مباشرة ليقول لها إنه تلقى لتوه رسالة من أمه الكونتيسة التي سيزورها هذا الأسبوع.. وأن الكونتيسة عبّرت بشكل مفاجىء عن رغبتها في رؤية حفيدتها.. ورغبات الكونتيسة لا يتم تجاهلها.. لكن هذا ليس كل شيء.

خلال تلك الزيارة، ستقدم كارلوتا إلى رجل قد يصبح زوجها.

ـ اسمه انريكو.. والده يملك مزرعة «آريبون» وتربطهم علاقة

www.liilas.com

مصاهرة مع عائلة جدتي.

اقتربت كارلوتا من سرير غريتا وغاصت فوقه، وظهر البؤس على وجهها البيضاوي الصغير: لقد عاد إلى بلاده للتو من الجامعة.. ليته ظل هناك!

صمتت غريتا، الاهتمام يغشى عينيها وهي تفكر بأفضل وسيلة لتعطي المشورة دون التشجيع المباشر على التحدي الذي تراه في عيني الفتاة.. أخيراً قالت بهدوء: كيف تؤكدين أنهم سيرتبون هذا الزواج؟ على أي حال أنت لم تقابليه بعد.. وقد تأمل جدتك أن تعجبي به ويؤدي هذا إلى الزواج.. لكن لو أنك لم..

ـ سيفعلون هذا.

ـ وهل قال خالك هذا؟

ـ لا.. لكنني أعرف.

سألت بخفة: وكيف؟ كيف تعرفين وهو لم يقل شيئاً من هذا؟

ـ لأنه طلب مني أن أخرج للتسوق اليوم.. ثم ضحك وقال: آه.. أجل.. من يدري؟ قد تعودين مخطوبة!

هزت غريتا رأسها، لا تزال تظن أن كارلوتا تبالغ في شيء قد لا يحدث: إنه يمازحك.. فحتى لو وقع اتريكو في حبك بعنف فلن يعرض عليك الزواج من أول نظرة. ومن يدري فقد يكون قد قابل إحدى زميلاته في الجامعة ويفكر فيها كعروس له؟

فتحت كارلوتا يديها إلى الأمام: لا! آه.. أنت لا تفهمين.. خالي لم يكن يمازحني.. كيف أشرح لك كيف يحدث لنا هذا؟ لن يقول لك أحد: أجل يجب أن تتزوجي منه.. فالأمر أكثر مكراً من هذا.. لكن بطرق مختلفة كثيرة، يخبروننا أن زواجنا مناسب جداً ويسعد عائلتينا، حتى ندرك تماماً أننا سنجرح كرامتهما ونخيب أملهما بمرارة إذا رفضنا.. وهكذا نوافق.. ويصبح الجميع سعيداً ونصدق أننا سعداء

كذلك.. هكذا يجري الأمر يا غريتا.. لا، لم يكن تيو يمازحني.

تنهدت غريتا، لا تدري ما تقول: فهمت.. متى ستسافران؟

ـ سنطير غداً في المساء، وسيرجع خالي في الأسبوع القادم. بينما أظل أنا مع جدتي إلى أن.. إلى أن.. آه.. أرجوك؟ ألا تستطيعين مساعدتي؟

تراجعت غريتا خطوة: لكن كيف؟ تعرفين أنني مستعدة لأفعل ما يوسعني.. لكن ماذا يمكن أن أفعل؟

ـ يمكنك التحدث إلى خالي.. أنك أعددت لنا برنامجاً تثقيفياً، أنا وكارلوس.. وقد تأخر الوقت فلا يمكن لك أن تلغيه..

لوحت غريتا بذراعيها: كارلوتا! كيف أستطيع هذا؟ لا أستطيع التدخل في شؤونكم العائلية الخاصة، أما تلك الفكرة، فهل تتوقعين أنه سيصدقها؟

ـ آه.. أجل.. أجل.. سيصدقها، سيصغي إليك.

ـ أنا..؟ لا أظن ذلك.

ـ لكنه قال لي هذا.. قال لي إن عليّ أن أتحمل الاختلاف في وجهات نظرك لأنك برغم هذا تمتلكين ميزات تثير الإعجاب قد أستفيد منها كثيراً.

لم تدرِ غريتا أتضحك أم تغضب: حقاً؟ وما هي تلك الميزات التي اكتشفها فيّ فجأة؟

ـ أنت هادئة في مواجهة الطوارىء..

وما هي تلك الطوارىء..؟ لا شك أنه يقصد نوبات غضب كارلوتا.. وواصلت الفتاة: .. ولديك الكثير من الشجاعة والصدق.

تظاهرت غريتا بالتسلية: وهل لديّ كل هذا..! تابعي.

ضاقت عينا كارلوتا: لا أذكر أكثر من هذا.. اكتسى خداك باللون الأحمر.. ما كان ينبغي أن أقول لك أشياء كهذه.. لكنني كنت آمل أن

www.liilas.com

أجعلك تفهمين أن خالي سيصغي إليك.

ـ لن يفيد تصديقه لي شيئاً لو أنني قلت له أكاذيب.

ارتفع كتفا كارلوتا وانخفضتا في تنهيدة قوية.

ـ لن تكون أكاذيب لو دبرنا شيئاً.

هزت رأسها: لن ننجح.. حتى ولو اقتنع خالك، فهو يتوقع منا أن نلغي الخطة.

ارتفع رأس كارلوتا والتفتت بامتقاع: فهمت.. أنت لا ترغبين في مساعدتي.

تنهدت غريتا.. تقاوم اندفاعاً لإخبار الفتاة كيف حاولت أن تتفوه بآرائها إلى الكونت بدون نجاح.

تحول اللون الزهري إلى أحمر قاتم مع تذكرها بوضوح عناقه لها.. وأدركت عجزها عن مناقشة خططه التي تتعلق بكارلوتا فهي تستطيع بسهولة التكهن برده.

نظرت إلى كارلوتا وتنهدت بعمق قائلة بحزم: اسمعي.. أنت تأخذين المسألة بجدية مبالغ فيها برغم أن عمرك لا يزيد عن السابعة عشرة.. اذهبي وأقيمي مع جدتك والتقي بأنريكو هذا، وتمتعي بوقتك. فمن يدري فقد يكون إنساناً رائعاً، وقد تكونين قد نسيت ميغيل حين تعودين.

التوى فم كارلوتا سخرية: أبداً.

ثم ركضت نحو الباب تصيح: أنت لا تهتمين..! لا أحد يهتم!

وصفقت الباب وراءها.

قدمت الفرصة الذهبية نفسها في وقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم، حين كانت غريتا في طريقها إلى بركة السباحة.. وقد غطت جسمها بسترة فوق ثوب السباحة وهي تخرج من الباب الجانبي. عندما وقف ظل في طريقها، ولم يتنح الكونت فوراً عن الطريق.

ـ أذاهبة للسباحة؟

ـ أجل يا سنيور.

ـ هل كانت رحلة التسوق ناجحة؟

ـ لا.

ولم يكن هناك خيار سوى شرح السبب أو القول بأن المسكينة كارلوتا ترفض الآن الكلام معها.

ضاق حاجبا الكونت. أشك في حماس ابنة أختي لزيارة جدتها.. فهل هذا صحيح؟

فجأة أدركت غريتا أنها غير شجاعة وتشعر بالخوف التام الآن.

ـ أنا.. أظن.. أنها تفضل البقاء هنا لمباشرة تجهيزات الحفلة.

ـ هل هذا هو كل شيء؟

أشارت بيديها عاجزة، فابتسم: لا أظن هذا يا سنيوريتا.

عادت غريتا بجفاء لتتحدث بالرسميات المهذبة.. وارتفع رأسها بكبرياء: أنت محق تماماً، يا سنيور كونت.. ابنة أختك ليست سعيدة.. ويبدو أنك قد نسيت أنها لا تزال حزينة على فقدانها لأمها.. فهي بحاجة إلى الحب والرعاية.. والكثير منهما.

استدارت فجأة لكنها لم تستطع التهرب من الأصابع الفولاذية التي أطبقت على معصمها.

ـ لحظة واحدة يا سنيوريتا.. أحس أن الوقت قد حان للتفاهم حول مسألة ابنة أختي.. أعرف تماماً الفوضى السائدة بين شباب مجتمعكم.. كما أعي تماماً ثقتك بنفسك.. لكنني سأغضب كثيراً لو اكتشفت أن هذا يؤثر على ابنة أختي ويدفعها إلى التمرد.

ـ إنها ليست متمردة..! ولا أحلم بتشجيعها. وهل من العصيان أن يكون للمرء رأي في حياته الخاصة؟

قال ببرود: في مثل حالتها، وفي الوقت الحاضر.. أجل.. وإذا

www.newwity.com

لم أكن مخطئاً جداً، فإنها أقنعتك بموضوع يتعلق بزيارتها إلى «فاليرايو».

ابتسم بغير مرح أمام شهقتها القصيرة التي لم تستطع غريتا كبتها، وترك معصمها: هذا ما ظننته.. وبما أننا بحثنا من قبل تلك المسألة، فأنا أعرف تماماً رأيك في الموضوع.. وأضيف أنني لست أعمى عن الاهتمام الرومانسي لابنة أختي منذ بعض الوقت.. ولا عن هوية من تستهدفه..

صمت ينظر إلى وجهها الشاحب من جراء حديثه.. وواصل: هل أبدو واضحاً تماماً.. يا آنسة تيرانت؟

بذلت جهداً شاقاً لتخرج الكلمات من بين شفتيها المرتجفتين: واضح تماماً.

إنه يعرف! يعرف!

ـ لذا، فأنا لست بحاجة لأضيف بأن المزيد من التشجيع لهذا الاهتمام.. محرّم بالكامل؟

حركت أطرافها المشلولة بصعوبة وتراجعت خطوة.. واستردت من مصدر عميق في داخلها القوة والشجاعة التي أعجب بها لتواجهه وترد بهدوء: هناك شيء واحد نسيته يا سنيور: أحياناً يكون الممنوع مرغوباً.. ابنة أختك تفتح عينيها على الحب.. وأن تحرّم عليها مثل هذه اليقظة، يشبه محاولة الوقوف في وجه المد.. ألم تفكر في هذا؟

ـ ليس قبل أن يفوت الأوان. لكنني سأعتني بالأمر الآن.. وأنت، كما أرجو، ستتذكرين هذا يا سنيوريتا.

أحنى رأسه بتلك التحية الباردة وانتحى جانباً، يبتعد عن طريقها.

تلاشت الآن كل رغبتها في السباحة.. لكنها لن تعود إلى الداخل، وسمعت صوت باب الشرفة المسقوفة يغلق خلفه بنعومة.. فركضت كالعمياء إلى حافة البركة ترمي نفسها، وكأن الماء الذي يغمرها سوف

يمحو ذكرى هذا اللقاء الذي لم يكن في الحسبان. لكن لم يكن هناك ترياق فوري سحري.. وعندما خرجت، كانت تعض شفتها لتسيطر على ارتجافها بينما قطرات الماء على وجهها تختلط بدموع أفلتت من عينيها.

* * *

سافر الكونت وابنة أخته ضمن رحلة طائرة المساء إلى «فالبارايو» في اليوم التالي. أوصلهما ميغيل إلى المطار وأعاد السيارة مع رسالة تقول إن على غريتا أن تعتمد عليه عندما تحتاج للمساعدة في عملية الإعداد والتجهيز لحفلة كارلوس.

وبدا ميغيل حزين المزاج.. وخمنت غريتا الأوامر التي أصدرها له الكونت وقد عرف الآن بالموقف بينه وبين ابنة أخته.

مضت الأيام بائسة.. وهبط على الفيلا سكون حزين غريب حتى أن كارلوس فقد اهتمامه بالحفلة التي ستجري بعد أسبوع واحد. لم يكن هناك أي خبر من «فالبارايو» ولا يعرف أحد ما إذا كان الكونت وابنة أخته سيعودان في الوقت المناسب للاحتفال.

في نهاية الأسبوع، اتصل بها كايل سكوفيلد ليلغي الرحلة التي اتفقا عليها: آسف جداً يا حبيبتي.. لكن هناك شيء لم أتوقعه ظهر أمامي فجأة.. ولدي أشياء كثيرة أنهيها قبل السفر.

ـ تسافر؟ أي سفر؟

ـ ألم أقل لك؟ إن إجازتي السنوية الطويلة موعدها الشهر القادم، تستمر لثلاثة أشهر.

شهقت بنعومة.. فضحك: هاي..! إنها الإجازة الأولى منذ سنتين.. وأظن أنني أستحقها؟

ابتلعت ريقها بصعوبة لتقول بخفة مصطنعة: بلى.. بالطبع.. وأتوقع أن تكون قد خططت لإجازة صاخبة.. إلى أين ستذهب؟

ـ لا أعرف بعد.. ربما إلى ميامي.. لدي أصدقاء هناك أو قد أعود

www.rewity.com

إلى الوطن.

صمت قليلاً وكأنه سمع تنهيدتها المكتومة ثم صاح: ما الأمر؟ يبدو عليك الإحباط.

ـ أجل.. قليلاً.. لكنني لا أستطيع أن أقول لك عبر الهاتف.

ـ بهذا السوء؟ لا بأس، سيحل بسرعة موعد الفيستا ولسوف نصعد لأعلى قمة في العالم.. هل هذا موعد؟

تحرك الذعر داخلها مع إحساسها بالغثيان وخيبة الأمل.. إنها بحاجة إلى أحد الآن برغم أنها تعرف أن لا أحد يستطيع فعل شيء أكثر من تقديم العزاء بود وعمق.

أطبق عليها إحساس بالوحدة لا يحتمل، ولأول مرة منذ وصولها إلى هنا شعرت بالخوف في جو غريب، تعرف أنها خارج دائرة منزل الكونت ومعارفه لا تعرف سوى كايل.

قالت: لكن حفلة كارلوس.. هل نسيت؟

سمعت آهة مكتومة من الطرف الآخر فأدركت أنه نسي.. وقال بصوت أجش: لقد خرجت من تفكيري تماماً، أجل، طبعاً، سأكون هناك على أي حال.

وبعد حوار رقيق متبادل أغلقت الخط وذهبت للبحث عن كارلوس وهي حزينة.

بعد يومين وصلت رسالة من كارلوتا. كانت محتوياتها فيها حذر متكلف.. لكنها جاءت إلى غريتا بكمية من الدفء.. وابتسمت للجمل الطويلة الجامدة في وصف الأحداث والناس الذين اختلطت بأوساطهم، وذكرت «دون أنريكو» الذي لم تعطه أي تمييز أكثر من إشارة عابرة.. ثم الكونتيسة..

وصلت غريتا إلى الجملة النهائية في الرسالة، وشهقت.. ستعود كارلوتا على الأقل في الوقت المحدد لحفلة كارلوس برفقة الكونت..

وسيعودان مساء هذا اليوم بالذات والكونتيسة معهما.

كان تأثير هذا الخبر مذهلاً على المنزل كله. وتلاشى بسرعة جو السكون.. وتوقفت الخادمات عن الثرثرة. ودبت موجة نشاط في الفيلا كلها والحدائق معها..

كل هذا لشخص واحد! صياح «الكونتيسة ترغب..» «الكونتيسة سوف..» توقف عن التداول بين أفواه الخدم، وبدأ الجميع ينظفون ثيابهم ويعتنون بمظهرهم ويضعون المرايل البيضاء المنشاة والبزات النظيفة فوق أجسامهم.

ذهب كارلوس مع ميغيل إلى المطار لاستقبال العائلة العائدة وأحست غريتا بالتوتر يهاجمها مع اقتراب موعد الوصول، كانت قد ساعدت دونا إيزابيلا لتجلس على المقعد في الشرفة، وتقف الآن إلى جانبها تشعر بقليل من القلق. ووضعت دونا إيزابيلا عكازها الفضي المقبض على مدى يدها ونظرت إلى الفتاة الصامتة.. تلامس فمها ابتسامة.

ـ لاتُظهري مثل هذا القلق يا عزيزتي.. لن تأكلك!

ـ وهل تأكل الناس عادة؟

ابتسمت العجوز: شقيقتي؟ لا.. لكن لديها طريقة في صرف من لا يعجبها بنظرة واحدة تجعله يختفي من أمامها نهائياً.. برغم أنني ينبغي ألا أقول هذا.

تنهدت غريتا.. هذا لا يوحي بالتفاؤل للمستقبل.. ثم أحست بنظرة العجوز عليها، فأدارت رأسها لتقرأ في عينيها شيئاً يشبه العطف.

وقالت الدونا بلطف: من الطبيعي أن يحتمي الضعيف بدرع الحذر.. أجل.. لقد راقبتك خلال الأيام الماضية.. وأدركت بأنها كانت أياماً صعبة عليك.. فأنت لطيفة وعطوفة مع الصغار وهذا يجعلك تتورطين مع كارلوتا، بالرغم من إحساسك بالواجب نحونا.. وأخشى

www.liilas.com

من قسوة ابن أختي لو لقيت رغباته التجاهل.. وأظن أنك أخذت كل هذا بشكل عاطفي أكثر من اللازم.

غرقت غريتا في ارتباكها دهشة لنفاد بصيرة دونا إيزابيلا.. ولم يخطر على بالها في هذه الأثناء أن تعزو ذلك الارتباك لأي سبب آخر، وتمتمت، لكن دونا إيزابيلا أشارت برأسها بطريقة سلبية.

ـ لا تقلقي أكثر من هذا.. الآن كل شيء على ما يرام.

اخترق صوت سيارة الهدوء، واستقامت دونا إيزابيلا في جلستها تمد يدها إلى عكازها.

توقفت السيارة، وفي لحظة امتلأت الشرفة المسقوفة.

انطلق كارلوس إلى الأمام يمد يديه إلى جدته وهي تخطو خارج السيارة.. ووقفت كارلوتا جامدة لحظة بينما كان ميغيل يفتح صندوق السيارة، ويبدأ يحمل تلاً من الحقائب، ثم بدأت الصيحات والإيماءات ابتهاجاً بلقاء العائلة مجدداً.

لكن غريتا لم تر سوى شخصاً واحداً.

في تلك اللحظات لم ينظر إليها أحد، وتمكنت من الوقوف جانباً والنظر.

بدا لها أطول قامة.. بشرته الزيتونية الناعمة أكثر قتامة، كث الشعر أسوده جذاب للغاية. حركاته الرشيقة تدل على قوته كنمر متربص يتحرك للصيد ببطء.. كان يرتدي نظارة سوداء وقميصاً أنيقاً بلون عدسات نظارته مع بنطلون ضيق عاجي اللون.. وعندما استدار تحركت عضلاته على طول جسده بشكل جعل غريتا تحبس أنفاسها.

كان ينظر إليها مباشرة وأحست بخفقان غريب يجتاح أحاسيسها، مع شعور مجنون بشلل مفاجيء يتملك أطرافها على الفور.. ثم غمرها الظل الأسود ووصل صوته إليها. عبر الغشوة الغريبة، سمعت صوتاً آخر بارداً مؤدباً، ولمحت امرأة وأحست أن اليد التي لا بد مدتها إلى الأمام،

تؤخذ بلطف.. وصوت الكونتيسة يقول: إذن هذه هي السنيوريتا الإنجليزية.

• • •

كانت الكونتيسة صغيرة الجسم ونحيلة، يحيط بها جو من الرقة خادعة تماماً.. ولم تستطع غريتا تقييمها حقاً حتى أنهت حديثها واستوعبت التأثير الكامل للسلطة التي تخفيها وراء مظهره الهادىء.

بدت قوية حازمة رابطة الجأش.. كان الخدم يخافون منها.. كارلوس وكارلوتا شعرا أمامها برهبة مفزعة، بينما حافظت دونا إيزابيلا وحدها على هدوئها في مجابهة شقيقتها المتسلطة.. الشخص الوحيد في المنزل كله والذي بدا غير خائف منها كان ابنها. خلف الفوارق الكبيرة بينهما، كان من السهل ملاحظة من أين ورث ثقته بنفسه وسحره.. ولم تكن خالية من المرح اللاذع.

ذلك المساء، استدعت غريتا بعد وجبة المساء الطويلة وجلوس العائلة في برودة الشرفة المسقوفة.. لامس الكونت ذراع غريتا بإيماءة مرافقة رسمية أحست بها تحرقها، ثم وضع لها كرسياً قرب الكونتيسة.

تفرست فيها للحظات النظرة الباردة الأرستقراطية.. ثم ضحكت فجأة بصوت خافت.

ـ يجب عليّ أن أختار الطريقة التي أتحدث بها معك آنسة تيرانت.. ليس كما أتحدث مع عائلتي أو الخدم، لأن وضعك مختلف، وأنت إنجليزية.

ظلت غريتا صامتة، ولمعت العينان السوداوان بمكر بشكل يشبه الوميض الذي تعرفه غريتا جيداً.. وواصلت: وإلا سترفعين على الأرجح أنفك الشاحب الصغير في الهواء، وتخبرينا ماذا تفعل بالوظيفة.. أليس كذلك؟

ردت غريتا بهدوء: ليس تماماً.. بالرغم من كل المعروف عنا..

www.liilas-library.com

فالبعض لا زال قابلاً للانضباط بشرط أن يكون انضباطاً عادلاً.

رفعت رأسها نحو الكونت وهي تنهي حديثها لترى نظرته ثابتة لا يمكن قراءتها.. ولم يفت الكونتيسة ملاحظة أي شيء.. ونظرت لابنتها ثم ناحية الوجه المتوتر الفنيّ.

ـ أظن أن هذا أمر معروف.. فللسنيوريتا حذرها البارد الداخلي، حيث يميل الإنجليز إلى إخفاء مشاعرهم الحقيقية.. أليس كذلك يا رامون؟

رد ببرود: لا أظن أن هذا أمر يخص الإنجليز وحدهم.. ويخيل لي أنك تحرجين الآنسة تيرانت.. فهي ليست معتادة على مثل هذه الصراحة.

ردت الكونتيسة بحدة: كلام سخيف! إنها فقط حساسة أمام رجل يمكنه الوقوف في وجه ثرثرة امرأة.. تناول سيجارتك وقهوتك، واتركنا بسلام لنتعرف إلى بعضنا.

التوى فم الكونت لكنه لم يرد سوى بإحناء رأسه بوقار نحو غريتا وتحية عادية لأمه.

كانت عينا الكونتيسة كرؤوس الإبر وقوة ملاحظتها بذات الحدة، أرادت أن تعرف رد فعل غريتا والعائلة نحو عملها.. وكان من المستحيل تجنب ذكر اسم الكونت باستمرار خلال النقاش.. واضح أن الكونتيسة تحب ابنها الوحيد كثيراً وتحب التحدث عنه دائماً، وهذا أمر طبيعي، لكنه كان عذاباً لغريتا، في وقت كان ذكر اسمه يكفي ليسبب لها صدمة داخلية.

اشتاقت للوحدة لتصل إلى توافق مع اكتشافها المدمر أنها قد خسرت قلبها في أسوأ الاتجاهات.. هذا هو التفسير الوحيد للحساسية التي لا تفسير لها والتي تعانيها عند أقل إشارة اهتمام منه.. هذا هو سبب الابتهاج المرح الذي تستجيب له في تلك اللحظات.. وعرفت

الآن لماذا كان من الصعب عليها أن لا تنظر إليه وتستمر في النظر.. ولماذا تحثها كل غرائزها حتى تبقى بقربه.. وحتى تسعى لأي إشارة فيها رد إيجابي.

إنها مجنونة!

هذا ما قالته لنفسها باستمرار على مدى الأربع والعشرين ساعة التالية.. إنه نوع من الجنون.. إنه رجل جذاب، بل جذاب جداً.. وعندما تدرك أي امرأة هذه الجاذبية، وتسمح لنفسها أن تنجذب إلى الشعاع السحري، فمن السهل أن تتصور نفسها قد وقعت في حبه.

لكن هذه الحوارات الباسة لم تبدُ صحيحة.. وكانت ممتنة لمسؤوليتها عن حفل الميلاد ووضع اللمسات الأخيرة، ثم عن حوالى عشرين صبياً وفتاة صغار، معظم اليوم.

في البداية تردد الكبار، وكان لهذا تأثير كابح على الأولاد الذين كانوا ينفذون كما هو واضح تعليمات صارمة بشأن تصرفاتهم، وبدأت غريتا تيأس من أن يذوب الجليد.. هكذا أحست غريتا بالامتنان والاضطراب عندما دخل الكونت إلى «الصالة» الكبيرة وقيّم الموقف على الفور.

تقدم إليها يلاحظ مجموعات الكبار المتشتتة ويراقب الصغار المكبوتين الذين يشكلون حلقة.. وقال بوقار: أتلاقون صعوبة؟ هل يمكنني تقديم مساعدة؟

هزت غريتا رأسها تنوي أن تقول: أجل هلم وانضم إلينا، لكنها قالت: شكراً لك يا سنيور.. لكنهم يحتاجون لبعض الوقت ليتخلوا عن خجلهم.

هز رأسه ومضى بعيداً، ثم بدا وكأن الكبار اختفوا وبقي الصغار وحدهم.

هكذا نجحت الحفلة كثيراً.. وأخذ الأولاد يغادرون في نهايتها

www.liilwiley.com

برفقة الخدم والسائقين.. وبرغم إحساس غريتا بالإرهاق إلا أنها كانت سعيدة وهي تستحم وغيرت ثيابها استعداداً للعشاء والحفلة غير الرسمية فيما بعد.

حين بدأ الرقص كانت متوهجة العينين، حمراء الوجنتين، وأطاح بها كايل نحو الدائرة الراقصة ولم يكن الكونت قد بدأ الرقص بعد.. بل وقف في الظل يتحدث مع الكونتيسة وتيريستا. لكنها كانت واثقة أنه سيرقص فيما بعد، وبالتأكيد سيراقصها ولو لمرة واحدة.. ألم يأخذها مرة بين ذراعيه ويقسم لها بأنه سوف يعلمها معنى العواطف؟

طوقها بذراعيه، فارتجفت بعنف مما جعل كايل ينظر إليها.. ويسأل غير مصدق: أتشعرين بالبرد؟

ـ لا.. بل كدت أنزلق.

إن الحب يعلم المرء كيف يكذب! جاء لها كايل بكوب من العصير ووقف إلى جانبها لحظات. ثم قال مبتسماً: سأعود.. لا تبتعدي كثيراً.

وأخذ كارلوتا إلى باحة الرقص.

وجلست غريتا تشعر بأنها وحيدة.. مع ذلك مترقبة ما قد تأتي به الأمسية لها.. لم تعد ترى الكونت، لكن تيريستا مرت بها ودون غوميز المخلص يلاحقها بغير ملل، وابتسمت لها ابتسامة حزينة واستسلمت للملاحقة في حلبة الرقص، وأحست غريتا بالشفقة عليها.. ثم سمعت صوت الدونا إيزابيلا الهادىء إلى جانبها: ألست متعبة يا عزيزتي بعد إزعاج كل الصغار؟

ـ ليس تماماً.. لقد انتهى الأمر.

كانت تراقب تيريستا خلال الرقص.. لكنها نسيت كل تفكير بها وهي ترى الرأس الأسود يعلو فوق رؤوس الجميع.. وأطلقت آهة قصيرة.. فقد كانت استريلا تتهادى بثقة بين ذراعيه، وكان من حقها أن

تكون هناك.. وسمعت دونا ايزابيلا تعلق: زوجان أنيقان.. أليسا كذلك؟

أرسل صوتها الناعم المنخفض قشعريرة باردة في شرايين غريتا.. وقد لاحظت مدى التصاق رأس استريلا الأسود بكتف الكونت.. وأكملت دونا إيزابيلا: ربما يكون لزيارة الكونتيسة هدف محدد هذه المرة.

اشتد قيد حول قلب غريتا جعل من الصعب عليها أن تتنفس.. وهمست: وهل ستبقى الكونتيسة طويلاً؟

ـ إلى ما بعد الفيستا.. لدي إحساس في قلبي العجوز بأن هذه السنة ستكون هي المناسبة التي نشتاق إليها جميعاً.

تمتمت غريتا باختناق.. كانت الموسيقى قد توقفت.. بينما الكونت ورفيقته الجميلة يقطعان الشرفة إلى حيث تعقد أمه جلسة «جمع الشمل» مع صديقاتها القديمات ومعارفها.. كانت الكونتيسة تبتسم، وضمت يدي استريلا بين يديها وشدت الفتاة إليها لتهمس لها بشيء ما... حين استقامت استريلا، كانت تضحك.

تنهدت دونا إيزابيلا بسعادة دفعت بالتعاسة إلى قلب الفتاة الصامتة بجوارها. لم تخف الدونا يوماً آمالها حول الكونت وابنة أعز صديقة لها.. ويبدو الآن كأن هذه الآمال والأحلام ستتحقق أخيراً.

• • •

www.rewity.com

٩ ـ الأصل والظلال

غلف الفيلا هدوء شديد بعد رحيل الضيوف صباح اليوم التالي لكن غريتا عرفت أنه هدوء قصير المدى.. موعد العيد يقترب وإثارة الفيستا في الجو، وظل كارلوس في مزاج مرح صاخب بعد وقت طويل من حفلته.

أحست غريتا بألم في رأسها إلا أنها شعرت بالامتنان عندما قررت الكونتيسة وهي في طريقها لزيارة أصدقاء لها أن تصطحب كارلوس معها.. مع ابتعاد السيارة، أطبق الاكتئاب على غريتا. وبدت الفيلا مهجورة.. فعادت إلى غرفتها الباردة حيث ابتلعت حبتين من الأسبرين، وجلست تكتب رسالة طويلة لبلدها كانت قد أجلتها كثيراً.

لكن القلم بدا عاجزاً عن التعبير، ولم تستطع سوى أن تسترجع تلك الصورة التي تلاحقها خلال ساعات الليل الصامتة.. القسمات المتجهمة، المتكبرة، المتحفظة، المتطلبة، الغريبة الأطوار أحياناً، والمتحدية دائماً، والتي هي الآن محببة جداً.. هل يحب استريلا؟

من الصعب القول.. إنه لغز محير.. هل تنادبه استريلا باسم التحبب العائلي؟ طعنت قلبها موجة من حسد تشبه الألم الجسدي وقفزت إلى مخيلتها بعض الصور. إذا كان يريد الزواج من واحدة من الأختين، فهي تفضل أكثر أن تكون تيريسا التي تنم ابتسامتها الحزينة عن تعاسة خفية.. لكن هل هذا هو السبب؟ هل فقدت حباً لتكتشف

آخر ليس لها؟

حين دخلت كارلوتا الغرفة، استدارت غريتا بصيحة إجفال دعتها إلى التراجع فوراً.

ـ أنا آسفة.. لم أكن أعرف.. هل أنت مريضة؟

ـ لا.. أنا بخير.. قليل من الصداع فقط.

[illegible] إلى الستائر تفتحها لتدخل أشعة الشمس ثم واصلت: وقد تلاشى الآن.

ـ هل أنت واثقة؟ تبدين شاحبة.. الآن سأتركك بهدوء.

ـ لا تتركيني.. أرجوك.

تأثرت باهتمام كارلوتا.. فمنذ عودتها من «فالبارايو» ظلت كارلوتا منزوية، تبدو عليها نظرة تكتم لم تنم أبداً عن أي غضب أو يأس كالذي أظهرته قبل سفرها.. لكن يبدو أن العاصفة قد انتهت.. وقالت: هل تريدين الخروج اليوم؟

جلست كارلوتا أمام المرآة: لقد خرج الجميع.. لذا أظن أن علينا البقاء هنا ونسلي أنفسنا.. ماذا سترتدين في «الفيستا»؟

ـ لست أدري.. وهل ترتدي ثياباً خاصة؟

ـ طبعاً! ألا تعرفين؟ يجب أن يكون لك زي مميز.

ـ ماذا اخترت؟

أخفضت كارلوتا رموشها: إنه سرّ، لكنني سأقول لك بمجرد وصولنا هناك.. سوف يرتدي كارلوس زي جندي..

ـ لا تقولي لي.. جندي فاتح.

ضحكت كارلوتا: واستريلا سترتدي زي «كارمن» الأوبرا.

هزت غريتا رأسها تتصور استريلا في زي «كارمن» الفاتنة.. واسترسلت كارلوتا: يجب علينا أن نفكر في شيء مثير خاص بك يا غريتا.

www.new-wwe.com

شردت كارلوتا تتفحص شعر غريتا الحريري الأشقر ونقاسيم وجهها البيضاوي اللطيفة.. ثم صاحت: ولم لا؟ تعالي.. لدي الشيء المناسب تماماً.

في غرفتها، أخرجت علبة كبيرة من أسفل خزانتها ورفعت الغطاء.. من بين طبقات الورق أخرجت ثوباً منتفخاً من الدانتيل الأبيض.. وفتحته ليسدل بنعومة على شكل قسم علوي ضيق وأكمام طويلة نحيلة وتنورة واسعة منفتحة طويلة.

ـ إنه من القرن الثامن عشر، اشتريته لأجل مسرحية في المدرسة السنة الماضية.. وأظنه سيناسبك.. ومعه غطاء رأس.

وضعته فوق رأسها، فتوهج شعرها عبر الدانتيل الشفاف.. وقد رصعته ألف حلية صغيرة للغاية جعلته يبدو كأنه غلالة نجوم، وكان القماش خفيفاً رائعاً.

ـ إنه جميل.. لكن أخشى أن يحدث له شيء.

أشارت كارلوتا بيدها تبعد هذه الفكرة عن رأسها: لا يهم فلن أرتديه ثانية.. أظنك خائفة ألا يكون لديك النار الكافية لتكوني أميرة إسبانية ولو لليلة واحدة.

ـ هذا صحيح.. فأنا بيضاء وخمرية البشرة.

رفضت كارلوتا الاستماع إلى احتجاجاتها.. وأصرت على الذهاب إلى البلدة لشراء حذاء جديد، ثم استعارت مروحة ناعمة سوداء وفضية من الدونا إيزابيلا.. وقبل ليلتين من رحيل العائلة إلى هواريوبا، أجرت لها تجربة للفستان مستخدمة مشطي زينة اشترتهما خلال رحلة التسوق. وأرشدت غريتا كيف تمسك المروحة وتستخدمها.. ثم تراجعت إلى الوراء تدرس نتيجة عملها.

سارت حولها مقطبة ثم هزت رأسها برضى.

ـ سي..! أنت جميلة، ولست بيضاء وخمرية البشرة فحسب بل

أنت غاية في الجمال.. كل رجل في الفيستا سيقع في حبك.

هزت غريتا رأسها.. هناك رجل واحد سيكون محصناً ضد هذا.. وهو الرجل الوحيد المهم.

كانت العائلة ستطير إلى هواريوبا.. رحلة لمدة ساعتين تختصر رحلة يومين براً.. وسيلتقون بالجميع في المطار.. حين انطلقت العائلة أحست غريتا فجأة بالارتياح.. فقد كان من الصعب عليها الحفاظ على رباطة جأشها عندما تلتقي بالكونت في الڤيلا.

كان كابل سكوفيلد هناك.. وتوجهت بغير اهتمام نحوه.

ربما كانت تحبتها له غير حذرة في دفئها تشير إلى أنها تشعر بالراحة في صحبته كدرع لها.. وأمسك كتفيها، يشدهما لحظات قبل أن تسقط يداه ويمازحها بعينيه: هاي! أنت مسرورة لرؤيتي.. وسوف أضطر لإلغاء مواعيدي إذا كانت هذه هي النتيجة.

وقفت كارلوتا بينهما: هاي أميغو!

صافح كابل اليد الصغيرة الممتدة إليه، وربت على كتف كارلوس بإيماءة رجل لرجل.

ـ كارلوس!

رن استدعاء الكونت بارداً كالثلج، فأطاع الصبي الصغير على مضض ليسير مع المجموعة المتوجهة لتستقل الطائرة.

احتلت المجموعة معظم المقاعد المريحة في الطائرة، وما إن استقروا بارتياح حتى أغلقت الأبواب المتحركة التي تحجبهم عن بقية المسافرين في المؤخرة.

كانت السيارات في انتظارهم لتحملهم إلى مزرعة باكويرا، وما هي إلا مسافة قصيرة حتى انطلقوا عبر الشوارع الضيقة للمدينة القديمة الساحرة بأبنيتها العتيقة، بعدها بدأت السيارات تسرع في الطريق إلى الهاسيندا.

www.rewity.com

حين فكرت غرينا بالهاسيندرا تصورت مسكناً أكثر بساطة، لكن المنزل كان يقع في فسحة خضراء تقبع بين التلال، وبدا كبيراً جداً، له بوابة حديدية مزخرفة، تجاور الحدائق الجميلة.. ثم تقدمت السيارات من جانب المنزل، إلى فناء مرصوف بالحصى القديم. فجأة، بدا المكان يعج بالأولاد.

تعالت صيحات الفرح، وجوههم السمراء تشع بالترحاب، وأحاطت بالكونت أجساد صغيرة، وامتدت إليه أيادٍ متلهفة.. كانوا يتقاتلون ليكونوا الأقرب إليه.

همس كابل بشكل ساخر في أذن غرينا: لقد وصل رب العمل المحبوب..

لم ترد غرينا.. خلال هذه اللحظات، لمحت واجهة للرجل لم تعرفها من قبل.. بين الأولاد لانت قسماته المتجهمة عادة لدرجة الحنان الذي لم تتصوره.

بقيت تلك اللحظات القصيرة ثابتة في ذهنها تسترجعها بمرور الوقت، وبالتدريج تعرفت على الهاسيندرا.. لم يكن هناك أثر للفقر والظلم.. كان للرجال جو الوقار الهادىء يتفاخرون بما أنجزوه في عملهم.. النساء بدون مكتئبات، وأطفالهن بصحة جيدة..

ومن مكان مجهول تهادى صوت المزمار الحنون.. وكان في اللحن الناعم شيء منوم، بحيث جلست غرينا مسمرة في الشمس الذهبية المتوهجة.. ولم تسمع وقع الأقدام الخفيفة تقترب من خلفها، قبل أن يعيدها الصوت إلى وعيها.

ـ هل تحترقين شوقاً إلى الاحتفال يا سنيورينا؟

رفعت عينيها إلى القسمات القاتمة المهيبة وشدت يديها لإيقاف الارتجاف الذي تملكها، وردت بلهجة رسمية: كثيراً يا سنيور.

ـ أظن أننا فاجأناك اليوم.

ـ بأية طريقة؟

ـ دعينا نتجول يا سنيورينا.

تجنب الرد عليها ومد يده ليساعدها على الوقوف.. وحاولت التغاضي عن يده، لكن يده أمسكت معصمها حتى استعادت هدوء خطواتها. حين تركها، اجتاحها إحساس غريب بأن معصمها هو الشيء الوحيد النابض من جسدها.. وتوقف الكونت عند باب خشبي فتح بلمسة منه.

قفزت الدهشة لشفتيها، وأطاعت إشارته لتدخل ببطء.. رأت كراسي صغيرة، وطاولات منخفضة، وصوراً بألوان زاهية معلقة على الجدران، وتلاً منظماً من الكتب على رفوف منخفضة.. ولوح كتابة أسود طويل في الناحية البعيدة من الغرفة الواسعة.

تقدم إلى الداخل بخطوات واسعة كسولة: هذه مدرستنا الجديدة.

توقف أمام قسم خاص برسوم الأولاد: ما رأيك بفنانينا الصغار؟

تفحصت الألوان الصارخة: إنها رائعة للغاية.. لم أكن أعرف أن لديكم مدرسة هنا يا سنيور.

ـ لقد افتتحناها منذ خمس سنوات.. وأنشأنا القسم الإضافي منذ سنة.. أظن أنك دهشت مرة أخرى، يا غرينا.

أسبلت رموشها لتحجب نظرتها ولم ترد، تتذكر الترحيب الغريب الذي تلقاه من الأولاد، وقال بيرود: هذه أول مرة ترين فيها الجانب الثاني من بلادنا..

تقدم خطوة.. ثم استدار يواجهها: لقد لاحظت منذ البداية، تأهبك لرؤية الهنود الحمر المتضورين جوعاً. أليس كذلك يا سنيورينا؟

لذعتها نبرته الساخرة برغم اقترابه من الحقيقة في تحليله، وقالت بحدة: توجد مثل هذه الظروف يا سنيور.. الهنود الحمر بئس استغلالهم منذ قرون طويلة.. منذ احتلال الغزاة لهذه الأرض.

www.ewity.com

قال بسخرية: أنا لا أعارضك.. مع أن بعضنا يكافح ليكون أكثر إدراكاً.

لامس ذراعها واستدار ليخرج.. وهما يعودان، أحست بالتغير في مزاجه، وإلى أن وصلا ظلال الشجر البارد المخملي، كانت قد تطايرت نزعة التحدي من نفس غرينا مع تسلل الهواء الخفيف من الحديقة الغارقة في النور الذهبي..

عندما مر الكونت أمامها أطلقت تنهيدة مرتجفة، وقال بهدوء: لا بد أنك تعرفين أننا لا نستطيع وضع التربة الزراعية الغنية، حيث لا يمكن أن تتواجد وسط الجبال الجرداء والصحراء القاحلة.. لكن يوماً ما ستنتصر إرادتنا على الفقر.

تنهدت: هناك الكثير.

أمعن النظر إليها، ثم وصلت إليهما أصوات من في المنزل تدغدغ التفاهم بينهما.. وابتسم: هيا اذهبي.. أنت بحاجة للاستعداد للفيستا، فسرعان ما يحين موعدها.

ـ أجل يا سنيور.. هذا صحيح.

استدارت لإشارته وركضت إلى الداخل. كانت ابتسامته لا تزال موجودة، دافئة، أبعد من التحليل، حين بدأ «الفيستا» في الصباح التالي.. حتى ثقة استريلا الفائقة بنفسها لم تستطع أن تسلب غرينا سعادتها.. ولم تعد قادرة على تجنبه أكثر من هذا.. ولن تخشى غضبه من جراء تعاطفها مع ابنة أخته.

كان الكونت الحافز الوحيد لغرينا في المجموعة المختلطة الألوان التي تجمعت في ذلك اليوم المشهود.. فيما بعد استعادت الكثير من الذكريات الحية المفضلة لديها، برغم نسيان الذكريات الضبابية الأخرى.. ولم تتذكر مثلاً الرحلة إلى المدينة، ولا أين يقع المنزل بشرفته الواسعة التي وقفت فوقها مع الآخرين لمشاهدة الاستعراض

الملون. لكنها تذكرت مرور الموكب المتدفق، وأن كارلوس كان يرمي موجات متوالية من الورق الصغير الملون.

ما إن أصبحت غرينا داخل برودة الهاسيندا المرحبة، حتى استلقت في سريرها وأغمضت عينيها، وعلى الفور راحت تغط في نوم عميق.

أيقظها صوت إغلاق باب سيارة وقفزت من السرير. كان الوقت بعد الغروب، والضيوف بدأوا يتوافدون، وعليها بعد أن تستحم أن تبدل ثيابها وتصفف شعرها وتضع الماكياج..

كان الماء بارداً فأعادها إلى صحوها الكامل. فجأة بدأت تشتاق للأمسية أكثر مما اشتاقت لأي شيء آخر منذ زمن بعيد.

وجدت أن كارلوس يتصرف بشكل جيد.. كان الدرع الجلدي الصغير وحزام السيف بالكاد ثابتين فوق ثيابه.. كبتت غرينا اندفاعاً لتقبله وهنأته بوقار، ثم تركته يسير جيئة وذهاباً في الرواق الطويل فوق السلم، وأسرعت إلى غرفة كارلوتا.

لم يرد أحد على طرقاتها الأولى على الباب، فنادت بصوت منخفض لتسمع رداً مخنوقاً جعلها تعبس: اذهبي من هنا!

وقفت لحظة مترددة، ثم سمعت صوت بكاء.. فتحت الباب تقول بصوت منخفض متلهف: إنه أنا.. غرينا.

وأغلقت الباب وراءها.

واحتاجت للحظات حتى تعتاد عيناها على العتمة، وسرعان ما كتمت أنفاسها وركضت إلى الطيف الذي يبكي على السرير.

ـ ماذا حدث؟

تحركت الكتف الضعيفة بقوة تحت يدها: لا شيء.. اذهبي من هنا.

عضت غرينا شفتها: ألا أستطيع المساعدة؟ لا أستطيع تركك هكذا! آه.. ما الأمر يا حبيبتي؟ هل أنت مريضة؟

www.liilas.com

أبقت كارلوتا وجهها مدفوناً في الوسادة: ليتني كنت مريضة. ليتني كنت في عداد الموتى!

بصمت مدت غريتا يدها إلى طاولة الزينة تأخذ منديلين من الورق وضعتهما على الوسادة.. فأخذتهما كارلوتا ونفخت أنفها بعنف. ثم قالت شاهقة: آه.. يا غريتا.. ماذا سأفعل؟ أنا.. أنا يائسة، ويمكنني أن أموت!

قالت غريتا بهدوء: هل يتعلق الأمر بميغيل؟

- إنه ذاهب.. وإلى الأبد.. سوف يبعده تيو.. إنه..

يبدو أن الكونت سيصرف ميغيل من عمله، وسيغادر فوراً بعد عودة العائلة إلى ليما على أن يسافر في اليوم التالي إلى «سانتياغو» حيث سيبدأ عملاً جديداً في إحدى مزارع الكرمة.

- إنها مزرعة للعنب.. وماذا يريد ميغيل من العنب؟ آه.. إن خالي ظالم عندما قرر إرساله بعيداً عني.. أكرهه! آه.. يا غريتا.. لن أراه مجدداً.. أبداً!

- سوف تريه.

كانت كارلوتا قد ألقت بنفسها بين ذراعي غريتا.. وحاولت غريتا تهدئتها، بينما قلبها يرتجف بشدة.. تعاظم الإحباط في نفسها وهي تتذكر قول الكونت البارد عشية سفر ابنة أخته إلى ڤالبارايو.. إذن هذا ما كان يعنيه بقوله: سأعتني بهذا الآن بكل تأكيد..

احتاجت غريتا لحجج قوية لتجعل كارلوتا تنهض وتواجه الأمسية. لكنها لم ترتد زيها الذي اختارته وهو عبارة عن زي أميرة من شعب الانكا، وارتدت فستاناً شبه رسمي من الحرير الأرجواني بياقة مستديرة بسيطة.. قائلة إنها لا تشعر برغبة في الاحتفال.. ونجحت غريتا أخيراً في أخذها إلى «الصالة» حيث موائد الطعام المفتوحة محملة بكل أنواع الخبز المحمص مع الجبن والكافيار، والمقبلات، والحلوى.

كانت الأبواب الزجاجية العريضة في نهاية الغرفة مفتوحة، وأنوار المصابيح تسطع فوق الشرفة المسقوفة.. ولحسن الحظ، في جمع من أربعين إلى خمسين مدعواً، كان من السهل أن تضيع الفتاتان لذا لم تلفت عينا كارلوتا المتورمتين من البكاء أنظار أحد، وكان ميغيل يدور حائراً برغم أنه ليس من الضيوف ولا الخدم، حتى يراقب خدمة الضيوف ودقة الترتيبات.

بدا عليه البؤس والقلق، وتألم قلب غريتا للحبيبين الصغيرين.. لكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً عدا تقبل الأمر بوعي وأن تمنع عن كارلوتا المسكينة فضول الآخرين وتطفلهم. ولسوء الحظ فلن يدوم هذا أبداً، لأن غريتا نفسها جذبت الاهتمام بثوبها الإسباني الجميل كما توقعت كارلوتا تماماً.. حين بدأت موسيقى الرقص، عرفت أنها ستضطر إلى ترك كارلوتا وتوسلت لكايل عندما اقترب منها تعرف أنه سيفهم، لكنها لم تستطع هذا مع الكونت، وفي قرارة نفسها لم ترد أن ترفض.

من فوق كتف الكونت، وهو يراقصها، لمحت كارلوتا تجلس متصلبة تتحدث إلى امرأة مسنة.. ثم نسيت كارلوتا حين قال الكونت بصوت ناعم منخفض: تبدين فاتنة هذه الليلة.. يا سنيوريتا.

- شكراً لك.. لكن الشكر لابنة أختك فهي المسؤولة.

أحست بالتغيير المفاجىء عليه: آه.. أجل.. لماذا لم ترتد زياً؟

- كان.. هناك صعوبة ما.. لم يكن مريحاً.. وغير مناسب للرقص.

وأملت أن يترك الموضوع هنا.. لكنه لم يفعل: لا أظن هذا.. بل أن ابنة أختي مستاءة لأنني سوف أضع حداً للوضع السخيف المتعلق بها وبسكرتيري.

أجفلت غريتا: أنا لا أصف هذا بالاستياء أو السخف، إنها محطمة

www.rewity.com

القلب.

رد بهدوء: أشك في هذا.. لأنها صغيرة.. ولذلك ستستعيد وعيها سريعاً.. ماذا تطلقون عليه؟ جنون المراهقة؟

- وهل تصدق أن الأمر هيّن هكذا؟ مجرد نزوة افتتان! في وقت ما..

عضت شفتها بقوة، كادت أن تقول له كلمة «حب» لكنها قد تكشف أن علاقتهما.. إذا كان بالإمكان تسميتها علاقة، مستمرة منذ سنتين.

نظر إليها بعينين ضيقتين: نعم.. يا سنيوريتا؟

- أنت لا تفهم.. أليس كذلك؟ حتى ولو كان الأمر مجرد افتتان، فلديه القوة ليحطم القلب.

ارتفع حاجباه: أنا لا أنكر هذا.. لكنه إحدى عقوبات المراهقة التي لا يهرب منها سوى القليل.. وأظن أن على المرء أن يتوقع انكسار القلب قبل أن يطمع في نشوة الحب الحقيقي وفرحته.

خفف من خطواته حتى أصبحا بالكاد يتحركان.. وانفرجت شفتاها تسعيان إلى كسر لحظة السحر.. والتوى فمه سخرية، وقال: أظن أن عليك اختبار مثل هذه العاطفة.. فأنت مثل كارلوتا، تتمسكين بالظلال، لأنك لا تطيقين الصبر لانتظار الأصل.

- لا أفهم ما تعني.

- أدرك هذا الواقع تماماً يا سنيوريتا.. فأنت بريئة، ساذجة في شؤون القلب مثل كارلوتا.

- وهل لا تزال تحسبنا من الأطفال؟

- ليس تماماً، لكنني أرجو أن تحافظ ابنة أختي على سذاجتها مدة أطول.. أما أنت يا سنيوريتا.. لا تتمسكي بالظلال..

أحنى رأسه لها، وتراجع إلى الخلف. أدركت أن الموسيقى

توقفت. وامتزجت الأصوات بالصمت المطبق.

ما الذي يعنيه بالتمسك بالظلال؟ هل يعني..؟ هل أدرك إعجابها به؟ هل فضحت نفسها؟ وترنحت.. دون أن تعي أنها تتحرك إلى المكان الذي تركت فيه كارلوتا.. إنه يعرف! وإلا فما الذي يعنيه..؟

- تعالي.. جاء دوري الآن.

نظرت باندواخ إلى كايل، ثم ذهبت معه وكأنها مغشي عليها.. لم تكن تدري وهي في ذراعيه أيراقصها «الثالس» أم «الباسادوبلي».. أو ما الذي قاله لها وهما يدوران في حلبة الرقص.. وأحست فجأة بأصابعه تلتف حول أصابعها بقوة: أنت صامتة جداً.

أخذت نفساً قوياً: أجل.. أنا آسفة، فلا أرغب في الحديث.. وأرجوك لا تطرح أسئلة يا كايل.

رد بخفة: الجو هنا حار قليلاً، فلنخرج كي نتنسم الهواء وسآتيك بالعصير المثلج.

قادها إلى زاوية معزولة خارج الأنوار وجاء لها بكوب من عصير الليمون مع المياه الغازية اللاذعة.. استند إلى عمود سياج المزرعة الخشبي ونظر إلى النجوم: هل حاولت أن تحصيها يوماً؟

- لا.

- أضمن لك أن يشغل هذا تفكيرك.

- حقاً؟

دون أن تتغير نبرته: لقد تورطت.. أليس كذلك؟

أغضت تنهيدتها العميقة بالكثير. وقال بصوت منخفض ناعم: أتعرفين يا غريتا.. الإنسان يتعلم الصبر مع تقدم العمر.. فلا تكوني عجولة في مشكلة ما.. اجلسي وانتظري، وغالباً ما يأتيك الرد على يد الزمن.

قالت بخفة مرتجفة: لم أكن أعرف أنك فيلسوف أيها الرجل

www.rewity.com

الحكيم.

رفع كوبه وشرب منه: لست فيلسوفاً، أنت تحتاجين لصوت التجربة.

قالت بحزن: لست واثقة من نجاح حكمتك معي.

استدار يواجهها وقال بشيء من العنف: تنجح لو أردت أنت ذلك، اسمعي يا حبيبتي!.. هناك دواء لكل داء.. حتى لحالات العناد المتصلب وطباع الجنس اللاتيني الحادة.. غالباً ما يكون الدواء بعكس الداء. في مثل حالتك، الدواء هو في أن تلتزمي بشئونك فقط.. خذي بنصيحتي وتذكري هذا.

ارتبكت عندما أدركت أنه يعني كارلوتا، وأنها نسيتها تماماً خلال الفترة الماضية.. وقالت: من الأفضل أن نعود.. لقد سمعت إذن بأمر ميغيل؟

أمسك كايل ذراعها أثناء عودتهما: أجل.. وبصراحة، توقعت شيئاً كهذا منذ زمن طويل.. منذ نهاية الأسبوع في مزرعة بيلار.

- ألست مندهشاً؟

- لا.. أنا مندهش فقط لأن الكونت لم يتخلص من مصدر الإغراء في أسرع وقت.. يجب أن تواجهي الأمور يا حبيبتي.. إن «ميغيل» بالنسبة للكونت لا شيء، كما يعتبروننا لا شيء مقارنة مع أسلافهم أصحاب الدماء الزرقاء النبيلة.

أحست غريتا بالصدمة.. فهي لم تسمع كايل اللطيف المرح من قبل يتحدث بمثل هذه المرارة.. وتساءلت ماذا تقول.. في تلك اللحظة ظهرت تيريستا مع أحد الضيوف ونظرت إلى غريتا باستغراب.

- هل هناك شيء؟

- لا.. كنت أبحث عن كارلوتا.

استرخى عبوس تيريستا: آه.. أجل.. ليست الصغيرة كعادتها..

لقد ذهبت إلى غرفتها، وطلبت مني أن أقول لك إنها تشعر بالصداع.

عضت غريتا شفتيها: يا إلهي.. أفضل الذهاب لأرى هل هي على ما يرام؟

حين دقت بلطف على باب كارلوتا.. كانت مستعدة لأي شيء عدا الصمت المطبق. ووقفت غريتا مترددة.. فلو كانت كارلوتا نائمة فلا تبغي إزعاجها.. من ناحية أخرى ألح عليها إحساس خاطىء لم تستطع تحديده، لكنها في النهاية أطاعته وفتحت الباب بهدوء.

كانت الستائر مغلقة والغرفة معتمة. ترددت غريتا قليلاً، تنتظر حتى تألف عيناها الظلام.. ثم ميزت الجسم الصغير فوق السرير. وأفلتت منها تنهيدة ارتياح.. كارلوتا نائمة.. بهدوء شديد، تسللت خارجاً وأغلقت الباب دون صوت.

أول من التقت به هو الكونت وهي عائدة إلى الاحتفال، كان يمكن لها أن تمر دون أن يراها، لكنه وقف في طريقها وعلى وجهه تعبيرات فيها تحفظ، وقال ببرود: اختفت ابنة أختي.. هل رأيتها خلال الساعة الأخيرة؟

ردت ببرود مماثل: لديها صداع.. وترتاح.

لم يبدُ عليه الاكتفاء: وهل شاهدتها؟

ارتفع رأس غريتا: سنيور.. لقد غادرت غرفتها تواً. إنها نائمة ولا يجب أن نزعجها.

- إذا كان الحال هكذا فلن أزعجها، لكن وقت الألعاب النارية اقترب، ولا أرغب أن نتركها دون أن نراها.. تعالي يا سنيوريتا! سيذهب بعض الضيوف ركوباً والبعض الآخر سيراً على الأقدام.. فأيهما تفضلين؟

- هل المكان بعيد؟

- خلف المنزل بقليل، ضمن أراضي المزرعة.

www.rewity.com

نظر إلى ثوبها الأبيض وهز رأسه: لا.. أظن أن هذا الجمال ينبغي ألا يتجول في طرقاتنا المغبرة.. مع أن الليلة دافئة وجافة.

فتح الباب الجانبي وأشار إليها لتمر، ثم أشار إلى سيارة أنيقة لماعة.. ولا شعورياً وجدت نفسها في السيارة في حميمية الظلام الداخلي.

وبعد لحظات كان الكونت معها.. قاد السيارة حول المنزل وعبر الحدائق والأشجار الكثيفة التي لم تكن تعلم بوجودها، ثم دخل الطريق الرئيسي الداخلي.. أوقف السيارة في مكان مرتفع في منتصف الطريق هبوطاً من التل، وخرج منها.

- لا تنزلي بين الزحام.. قد يتمزق ثوبك.. ولو أحسست بالبرد اجلسي داخل السيارة.. فسترين كل شيء.

ابتعد، وظلت في مكانها طائعة. تتطلع إلى المنظر المتعدد الألوان..

توافدت سيارات أخرى إلى النقطة الطبيعية المميزة، وتعالت أصوات الضيوف القادمين سيراً على الأقدام.. ثم انطلق أول صاروخ مضيء إلى السماء، وتعالى هتاف الجميع الهادر.

كان هذا أجمل عرض للألعاب النارية شهدته غريتا في حياتها.. ازداد المنظر بريقاً واشتعالاً ولم تعرف غريتا متى لم تعد وحدها، وأجفلت حين أطبقت يدان لطيفتان حول كتفيها.. وعلقت أنفاسها في حلقها.. قال الكونت بنعومة: ألا تشعرين بالبرد يا سنيوريتا؟

متى وقف هنا!

- لا.. سنيور.

- أتتمتعين بالعرض؟

- إنه رائع.

أحست بلمسته الدافئة وحاولت التملص من سحرها الخطير..

لكنها كانت مسلوبة القوى لحظة إمساكه بها.. بينما ألسنة النار في منتصف باحة الاحتفال في الأسفل والمشاعل تضيء أرجاء المكان.. همس لها الرجل في أذنها قائلاً: من المؤسف أن يكون مثل هذا الجمال مجرد وهم وليس ملموساً.. أليس كذلك يا سنيوريتا؟ يستطيع المرء بصعوبة أن يرى ذلك الشلال من النجوم في وقت واحد.. ثم يأتي نور الصباح الباكر ليكشف كل ما تبقى: قليل من الورق المحروق وقد ضاعت الألوان مع رطوبة الندى..

- إنها مثل الظل والأصل، يا سنيور.

فجأة ابتعدت يداه عنها، وقبل أن تدرك شيئاً انفتح جناحان دافئان بضمانها في عباءة الكونت.

وقفت حيث هي.. تتنفس بصعوبة. تمنت لو تدوم هذه اللحظة إلى الأبد، لكن كل شيء كان قد أوشك على النهاية. إغراء ما كان بحث كل مشاعرها للاسترخاء، وأدركت أنها ستشعر بالحرمان من لمسته عندما يبتعد.. قال بصوت منخفض: هناك بساط في السيارة.. سوف..

ولم ينهِ قوله.. بينما ركضت استريلا بسرعة تصعد المرتفع نحوه.. في البداية لم تفهم غريتا سيل الكلمات الإسبانية، ثم ذعرت عند سماعها اسم كارلوتا.. ثم.. ميغيل.

أكملت استريلا كالعاصفة: أقول لك إنني رأيتهما!

ساد الصمت على الضيوف الآخرين.. اقترب بعضهم من استريلا الصاخبة، لكن الآخرين توجهوا إلى سياراتهم، وتوقفوا ينظرون إلى بعضهم البعض يتمتمون بصدمة.

بدا وجه الكونت مثل قطعة ثلج ساخطة.. ورمى استريلا بسؤال حاد، فرفعت رأسها متحدية.

- إذا كنت لا تصدق، فاذهب وانظر بنفسك.. ابنة أختك وميغيل،

www.rewity.com

هناك في الأسفل. لقد رأيتهما بنفسي يا ستيور.

ميغيل! كارلوتا! وأفلتت شهقة من فم غريتا.. وركضت فجأة إلى الأمام: لكنك مخطئة بغير شك! لأن كارلوتا في غرفتها! لقد رأيتها نائمة!

التوت شفتا استريلا: هذا ما تقولينه أنت.. وأظن أن الأمر كله من تدبيرك! لقد شجعتها على العصيان.. والليلة غطيتها. فلماذا تنكرين هذا؟

صدمت لانقلاب الهجوم عليها: لكنني لا أنكر! ما تقولينه كله غير صحيح.

اقترب منها كابل بصمت.. وامتدت ذراعه على كتفها تضغطها بمواساة: بالطبع ليس صحيحاً.. هوّني عليك يا حبيبتي. لا يمكن لأحد أن يلومك على هذا.

لكنهم يستطيعون توجيه اللوم إليها.. ولعقت شفتيها لتنظر مضطرة إلى الرجل الطويل المخيف الذي كان يلفها منذ لحظات بعباءته.. كان ينظر إليها ببرود حاد دفع بالجليد إلى قلبها.

هل صدّق استريلا؟ هل يلومها؟

• • •

١٠ ـ كنت لي

ـ كل ما أردناه ساعة معاً.. للوداع.. فهل هذا كثير؟

تنهدت غريتا عاجزة: في عالمي.. لا. لكن في عالمكم أجل.. لماذا اخترتما مكاناً عاماً كهذا؟ تعلمان أن العائلة كلها ستكون هناك.

تنهدت غريتا مجدداً ونظرت إلى الحديقة.

ـ لأننا توقعنا أن أفضل مكان هو أن نكون بين الجمع.. لن يفكر أحد في النزول هناك والألعاب النارية مستمرة.. ثم نتسلل عائدين قبل عودة أحد.

استدارت غريتا عن الشرفة وعادت إلى الغرفة تلقي بنفسها على كرسي متعبة: كان أفضل لو بقيتما في المنزل.

ظلت كارلوتا واقفة في الشرفة تلتقط أوراق زهرة بأصابع غاضبة.. ثم ألقت بها لتهتف بغضب.

ـ يمكنني قتلها.. لماذا لم تبق معكم جميعاً بدلاً من السير في الممر؟ والأشياء التي قالتها عنا.. وأنك تآمرت وكذبت.. آه! لم أره في حياتي غاضباً هكذا.

سارت تذرع المكان وكأنها نمرة صغيرة هائجة.

ـ أردت قتلها لأنني أعرف أنها كاذبة.. وأردت أن أستدعيك لتشرحي.. لكن خالي لم يسمح لي.. لم أره غاضباً هكذا من قبل. لست أدري لماذا تكرهنا هكذا.. لم نفعل لها شيئاً.. لو لم تتجسس

www.rewity.com

علينا حين كنا نذهب في نزهات على الخيل لما حدث كل هذا. الآن رحل ميغيل. وسيرسلني خالي إلى سويسرا. لن يسمح لي بالعودة مع جدتي. لكنني لا أريد الذهاب إلى أوروبا. ولن أبقى هنا. سأهرب! سوف..

صمتت، ترى غريتا تضع رأسها بين يديها. وحمدت النار من على وجهها ليستقر مكانها علامات الندم. ركضت إلى حيث كرسي غريتا لتنظر إليها بعينين قلقتين: ما الأمر؟ أنت.. أنت تبكين يا غريتا؟

هزت غريتا رأسها تنفث بسرعة وهي تفكر بضيق: لا! تعالي يا كارلوتا.. دعينا نسبح أو أي شيء، لا فائدة من الحديث المعاد والمزيد من التعاسة لأنفسنا.

رافقتها كارلوتا وهي تعد ملابس السباحة.

ـ لقد أتعسك هذا كثيراً يا غريتا.. وأنا آسفة.

لم تقل غريتا شيئاً. فكلمة التعاسة تصف حالتها بلا مغالاة الأيام الثلاثة التي انقضت من العودة إلى ليما، كانت لا تكاد تنتهي ولا تزال تشعر بيأس في كل مرة تتذكر ذلك المساء المأساوي، ولن تنسى الإدانة الباردة في عيني الكونت ولا صمته.. في اليوم التالي، ودع ضيوفه وكأن شيئاً لم يحدث.

وهمس لها كابل مودعاً: سينتهي كل شيء.. حاولي أن لا تأخذي الأمور جدياً.. سأتصل بك غداً.

تذكرت أنه سوف يسافر فسألت: وهل سأراك قبل أن تسافر؟

ـ أجل.. ستتدبر أمراً.. لا تقلقي.

لكن كيف لها أن لا تقلق؟ لو أنها نظرت عن قرب لذلك الطيف الأسود المنطوي في الفراش لعرفت أنه مجرد روب منزلي ألقته كارلوتا في فراشها.. ثم حكم عليها قدرها الشرير أن تلتقي بالكونت

لم تره سوى مرتين منذ عادوا إلى الفيلا. كانت طاولة العشاء طويلة

باردة، متباعدة مثلها مثل تصرفاته.

استمرت كارلوتا تجوب الفيلا كشبح هائم.. وبعد رحيل ميغيل، بدا أن لديها رغبة واحدة هي العودة إلى فالبارايزو مع الكونتيسة عندما تسافر في نهاية الأسبوع.

قالت بشكل مفاجىء: أشعر هناك بالمزيد من الحرية..

قالت غريتا: لم تخبريني شيئاً عن أنريكو.. كيف هو؟

ردت بلا مبالاة: إنه ولد صغير.. ولا يعني لي شيئاً.. ليت خالي يسمح لنا بالرحيل.

ـ أنعنين كارلوس؟ لم أكن أعرف أنه يريد..

قاطعتها كارلوتا بضجر: لا.. فلديه الكثير من الدراسة. لقد قصدت أنت.. يا غريتا.. على أي حال أنت مرافقتي، فلماذا لا ترافقيني؟

ـ أخاف ألا أكون ناجحة.

ـ لا تقولي هذا! لقد قالت فرانكا إن بالإمكان أن ترافقيني.. لكن يجب أن يعطي خالي إذنه.. سيعود غداً.. وقد يلين.

وتنهدت بعمق، لكن غريتا لم تشاركها في هذا التفاؤل الواهي. وعاد الكونت من رحلة عمل ومكث في الفيلا لوقت يكفي لتغيير ملابسه وحتى يتأهب كارلوس ليأخذه معه في رحلة لصيد السمك.. وعاد كارلوس يتباهى بمعاركه مع سمك التونا لكن الكونت لم يتحدث بشيء.. في اليوم التالي سافرت الكونتيسة في الصباح، وبقيت دونا إيزابيلا مريضة في جناحها. وأطبق الاكتئاب على الفتاتين.. فجأة أحست غريتا بعودة تمردها السابق.. لن تتحمل هذه الغلالة الباردة لحظة أخرى.. وقبل أن تتخلى عنها شجاعتها، خرجت نحو الباب المغلق وقلبها يخفق بسرعة ودقت الخشب بحزم.

ـ سي؟ ما الأمر؟

www.rewity.com

ارتجفت يداها وهي تمسك بالمقبض الذهبي اللون للباب لتفتحه، وفتح الباب بلمسة واحدة ناعمة لترى الكونت يجلس وراء منضدته في الركن البعيد من الغرفة الكبيرة. لم تشر قسمات وجهه الباردة إلى شيء من دهشة.. ووقف: أترغبين في رؤيتي يا سنيوريتا؟

ابتلعت ريقها بصعوبة وهمست: أجل يا سنيور.

تقدمت إلى الأمام تكبت إلحاحاً بالهرب، تحس بأن العينين المرسومتين في اللوحة فوقها تخترقان جسدها.. وتجاهلت إشارته اللبقة لها بالجلوس، وقال بعد لحظة صمت: حسناً يا سنيوريتا؟

وضعت يديها على الطاولة لتلتقط نفساً عميقاً.

ـ أظن أنك تعرف سبب مجيئي يا سنيور.. أنا.. لن نستطيع الاستمرار هكذا.. إننا...

ـ أنتم؟

ـ ابنة أختك، وأنا... لا يهم. ألن تحاول أن تفهم؟ لقد عانت بما يكفي.. ألن تغير قرارك؟

ـ ما الذي ترغبينه يا سنيوريتا؟ أن أعلن الخطوبة؟

ظهرت الحيرة في عينيها: لا! دعها تذهب للإقامة مع الكونتيسة لبضعة أسابيع حسب رغبتها..

لم تتلاش برودة نبرته: أبداً.

اقترب من الخريطة المعلقة قرب خزانته: يا سنيوريتا، إما أنك ساذجة بشكل لا يصدق أو تتصوريني ساذجاً.. لو تقدمت إلى هنا..

رفع يده إلى خريطة أميركا الجنوبية ولاحق خطاً بإصبعه: هذا هو الوادي الأوسط في التشيلي.. وهذه مدينة «فالبارايو» وهذه «سانتياغو» حيث تقع مزرعة العنب التي يعمل فيها ميغيل الآن.

تراجعت خطوة تنظر إليه بعينين متألمتين: وأنت تعتقد..

عاد إلى طاولته وقال: اجلسي يا آنسة تيرانت.

أدركت أن هناك أزمة قادمة، يبدو أنها قد أثارتها بتسرعها في السعي إلى هذه المقابلة.. وأرادت أن ترفض أمره الحازم وأن تتحداه برغم الطاولة الفاصلة بينهما.. لكن أطرافها المرتجفة اضطرتها إلى التراجع خطوة، ثم غاصت في مقعد.

كان فمه متجهماً وهو يراقبها، وبقي واقفاً. ثم قال متعمداً: إنني مضطر الآن أن أعترف بخطأي لأنني جئت بك إلى هنا.. لقد آمنت أنك تمتلكين ميزات الصدق والمسؤولية، التي قد تجعلك تتركين خلفك تلك الهالة من الإباحية التي يفتخر بها مجتمعكم.. وأنك مدركة أن الحرية الكاملة لا تعني انغماس المرء في كل رغباته. وأحسبك فهمت تماماً ما هو مطلوب منك.. والآن.. لا بد أن أعترف أن حكمي لم يكن يوماً بهذا السوء.. تصرف ابنة أختي لا يمكن التسامح فيه.. وليس أمامي خيار سوى الأخذ بعين الاعتبار التأثير الذي جئت به معك.. أستطيع إدراك التحدي والتسامح معه لكن الشيء الوحيد الذي لن أتغاضى عنه هو الخداع.

سادت لحظات من الصمت تضغط على كيان غريتا.. وسلبت الصدمة كل ألوانها، نظرت إليه بتوسل ليقول لها إن هذا كله مجرد كابوس.

أحست بالحرارة والألم وبالغصة المتصاعدة إلى حلقها، والمشاعر التي تلسع عينيها.. منعت دموعها بصعوبة من أجل كرامتها، وشدت كتفيها ووقفت لتواجهه باستقامة: حسن جداً يا سنيور كونت.. سأوفر عليك عناء صرفي..

ـ هل تعترفين بتقصيرك؟!

ـ لا أعترف بشيء.. لكن لا فائدة من الاحتجاج ولا أتوقع منك الإصغاء.. أنا.. سوف أرحل في أسرع فرصة.

واستدارت.

www.rewity.com

- لحظة واحدة.. يا آنسة تيرانت.

توقفت لأمره الجاف.. وواصل: هل تنقضين عادة الاتفاقات بمثل هذه الرعونة؟ لقد تعاهدنا.. ألا تذكرين؟

التفتت إليه تنظر إلى خلفه دون أن ترى: بلى.. أذكر.. لكنك وضعتني في موقف غير مناسب يا سنيور.. وكل ما سأقدم عليه الآن يتسم بالخطأ في نظرك.. أو بعدم الرضى.

قال بقسوة: هذا صحيح.. لكنني بحاجة لأن أتدبر أمري قبل أن أدعك تذهبين.. وحتى ذلك الوقت يشرفني وجودك.

لمحت طيفه يتحرك من خلال غلالة دموع ليفتح لها الباب.. وأجبرت نفسها على التحرك ببطء ورفع رأسها، حتى تخلت من السيطرة على نفسها عندما أغلق الباب.. فركضت تعميها الدموع لدرجة لم ترَ كارلوتا وهي تتوقف على السلم، ولم تسمع صيحة تعجبها عندما مرت بها في طريقها لغرفتها.. بعد خمس دقائق، وبعد أن غسلت وجهها الساخن بالماء البارد وأخذت سترتها وحقيبتها، نزلت مهرولة تجتاحها رغبة جامحة في الابتعاد عن كل شيء.

كانت السيارة الرينو في الكاراج، إلى جانب الوحش الضخم الخاص بالكونت.. كان التطلع إليه يؤلم حلقها مرة أخرى، فوضعت يديها على عينيها بضجر.. كانت الرينو غير مغلقة والمفاتيح فيها.. فأدارت المحرك بأصابع مرتجفة.. ومع أنها لم تقد سيارة منذ غادرت وطنها إلا أنها اعتادت بسرعة على الإحساس بها واكتشفت أن كل شيء فيها يماثل ما في سيارة أبيها.

حين انطلقت لم يكن لديها فكرة عن المكان الذي تتجه إليه. بعد وقت قصير وجدت نفسها تقترب من الجانب المزدحم في المدينة.. وتسمع أبواق السيارات المزعجة من السائقين المتوترين في ليما.

لزمها انعطافان خاطئان لتصل إلى الطريق الصحيح، وعندما وصلت

إلى الطريق الساحلي الواسع أدركت أنها يجب أن تتكلم مع شخص ما، برغم أنها لن تبوح بكل شيء.. وكابل سكوفيلد هو الشخص الوحيد الذي يمكنها أن تلجأ إليه ويفهمها.. بعد ساعتين، كانت قد دخلت الوادي.. لم يخطر ببالها أن تتصل به قبل أن تأتي فهذا أفضل.. لم تفكر إلا في الوصول إليه، والأمل بأن يعيد تفهمه القليل من كرامتها المجروحة.. هكذا حين دخلت الممر نحو منزله، لم تلحظ أن سيارته الكبيرة في غير مكانها المعتاد.

كان باب الشرفة مفتوحاً.. فصعدت الدرجات الثلاث بلهفة وهي تنادي: كابل..؟ وتفرع الباب.

لم يرد عليها، بل ساد الصمت.. وتلاشى الأمل من عينيها.. طرقت الباب بصوت أعلى، وصاحت مرة أخرى.. ثم سمعت صوتاً منهدج الأنفاس: صبراً! إنني قادمة! وأسرعت كارميلا بجسدها المترهل من الحديقة خلف المنزل، وتوقفت لرؤية غريتا، تتكلم بتسرع وجدت غريتا صعوبة في فهمه.

ثم شحب وجهها عندما فهمت.. لا يمكن أن يسافر كابل قبل نهاية الأسبوع! وماذا عن تلك الرسالة؟ وعن السنيورا جورادو؟ تيريستا؟

وواصلت كارميلا بأنفاس لاهثة: أدخلي يا سنيوريتا، لقد بدأت التنظيف. تفهمين هذا.. يجب دهن كل شيء والسنيور سكوفيلد غائب.

بضعف، دخلت غريتا المنزل وهي تشعر بخيبة الأمل.. أبعدت مدبرة المنزل كومة أوراق من على مقعد ودعتها للجلوس، ثم ذهبت لتأتي بالرسالة.

- طلب مني أن أرسلها بالبريد.. أتفهمين يا سنيوريتا.. كان مستعجلاً جداً، ها هي.

نظرت غريتا إلى الرسالة بوجه مرهق متجهم مع فقدان أملها..

www.rewity.com

كيف يسافر دون أن يخبرها؟ أخرجت ورقتين. وهي تمر بأول بضع جمل، أضافت الصدمة السواد لعينيها: «عليك أن تهنئينا وقت قراءتك لهذا.. أنا وتيريستا سوف نسافر في طائرة الصباح إلى لندن وسوف نتزوج.. تملكنا الإغراء بأن نخبرك.. لكن تيريستا لم ترغب في المخاطرة.. لقد عزمنا معاً على أن لا يتدخل شيء في خططنا.. لقد أحببت تيريستا منذ زمن.. منذ وقعت في غرام صديقي من مونتانا.. كنا شابين مفلسين مغامرين في تلك الأيام، ولم ينل قبول عائلتها وأظن أن هذا هو السبب في عودته إلى بلاده ليلقي بنفسه في أحضان حب طفولته.. لكنني الآن أقنعتها بقول «سي».. ولن أخاطر حتى أضع الخاتم في اصبعها.. تمني لنا حظاً سعيداً يا حبيبتي.. لن تعرفي أبداً كم ساعدتنا على الحفاظ على سرنا، وسامحينا.. كابل».

كان هناك ملاحظة عاجلة في الخلف.. اسم ورقم هاتف لزوجين يعرفهما كابل في «ميرافلور» إذا كانت تحتاج للأصدقاء في أي وقت. نظرت غريتا إلى وجه كارميلا المترهل القلق، فقالت العجوز: صدمة.. سي؟ سأعد لك القهوة؟

ـ لا.. شكراً يا كارميلا.. أنت مشغولة جداً.

خرجت عمياء البصيرة، وصعدت السيارة بالرغم من شمس الظهيرة الحارقة التي سطعت فوق رأسها. قرأت الرسالة مجدداً.. حتى الآن لم تستطع استيعابها.. كابل وتيريستا.. حبيبان؟ هربا معاً للزواج؟ كيف لم تلاحظ أبداً؟ لكن كان عليهما أن يخبراها بالأمر.. ألم يثقا بها لكتمان سرهما؟

تركت الرسالة تقع على المقعد بجوارها.. اجتاحها بؤس الحرمان، وتذكرت بمرارة أنهما استغلاها كستار. لقد اتضح كل هذا الآن بعد معرفتها للحقيقة.. وتدفقت الدموع من عينيها، فأدارت محرك السيارة بغضب.

لكن لم يكن هناك تجاوب.. التوى فمها مرارة وهي تحاول مرة أخرى.. بغير فائدة! هذا ما ينقصها.. تعطل السيارة.. أحنت رأسها على عجلة القيادة، تستجمع قواها حتى ترجع للمنزل وتتصل طلباً للعون. وتدفقت الدموع الساخنة على معصمها.. كيف ستقضي الوقت المتبقي إلى أن يتركها الكونت ترحل؟ كيف ستواجهه؟ كيف ستنساه؟

لم تسمع صوت إطارات السيارة في التراب إلى أن تقدم طيف أسود ووقف أمام الرينو.

قال الكونت متجهماً: إذن فقد كنت على حق.. والآن ستهربين!

ارتجفت شفتها السفلى.. وهزت رأسها بذهول: إنها.. لا تعمل.

ـ السيارة؟

مال فوقها يجرب إدارة المحرك.

ـ لا عجب، فهي فارغة من الوقود.

فتح لها الباب، ولا مجال للخطأ في أمره الصامت.. لكنها ظلت تجلس: سأتدبر أمر أخذها من هنا.. تعالي يا آنسة تيرانت.. هل تتصورين أنني سأتركك تهربين بسهولة.

لذعت اللهجة الباترة معنوياتها.

ـ أنا لا أهرب.. وأنا.. أفضل السير بدلاً من إطاعتك.

أنهت كلامها بيأس وهي تنزل من الرينو. وقد أمسك بذراعها بقبضته الفولاذية ولم تفلح في دفاعها الضعيف.

ـ لا تختبري صبري كثيراً يا آنسة تيرانت.. وإلا ستكون العواقب مؤلمة.

وقادها نحو سيارته، وضعها فيها ثم أغلق الباب خلفها وأخذ حقيبتها ونظارتها السوداء.. رأى الرسالة، وزم شفتيه عندما رأى التوقيع واضحاً.. وبحركة ازدراء التقطها ورماها في حجرها ينظر إلى وجهها المشدود التعيس.

www.liilas.com

- هل يعني كثيراً لك؟

اشتدت أصابعها على الرسالة.. للحظات لم تستوعب مغزى سؤاله.. ثم رفعت رأسها بحدة وقبل أن تنكر استدار مبتسماً بسخرية:

ستتغلبين على هذا يا آنسة تيرانت، صدقيني. في يوم ما سوف تستيقظين وتفهمين الحب الحقيقي. وليس الظل فقط.. ولن ترضي بما كان سيقدمه لك كايل سكوفليد.

غمرت الكلمات الباردة القاسية مشاعر غريتا بالغضب.. فشدت قبضتيها وانفجرت: كيف تجرؤ على مثل هذا الحديث! أنت.. يا سنيور.. كيف تجرؤ على التحدث عن كايل هكذا؟ إنه قادر على تقديم الحب والانسجام وأنت لا تعرف لهما معنى! أنت تحطم قلب ابنة أختك باسم تقاليدك البالية.. ولو اكتشف أحد أمر كايل وتيريستا، لكنت على استعداد لمنعهما.. لكنك لم تكتشف شيئاً.. ويسعدني هذا كثيراً! لقد هربا، ولو كان لديهما شيء من الحكمة فلن يرجعا إلى هنا أبداً.. وإذا..

أمسك كتفيها بيديه وأجبرها على مواجهة غضبه الأسود: إذن أنت سعيدة يا ستيوريتا! أتعرفين ما تقولين؟ تعلنين سعادتك لأن امرأة أخرى فازت بحبه، ونكاية بقلبك تدافعين عنهما ضد التقاليد التي تكرهينها؟

- أجل.. يسرني هذا! وأنت مخطىء..! أنا لا أحب كايل! وهو لم يحبني أبداً.. كنت فقط..

أمسك بيديها المتطايرتين: أيتها الحمقاء الصغيرة! هدئي نفسك! لماذا تحاربيني دائماً؟ لماذا تبكين على رجل لا تحبينه ولا يحبك؟

وقبل أن تتحرك، حجب رأسه الشمس عنها وضمها في عناق شرس.. للحظات شعرت وكأن الزمان توقف.. ولم تدر كم من اللحظات التي لا نهاية لها مرت قبل أن تعود الحياة إلى أحاسيسها المصدومة.. وقاومت ذراعيه بعنف حتى تملصت منه وقد اختنقت

بدموعها: كيف تجرؤ! دعني أذهب! أنا..

- ماذا لو رفضت أن أدعك تذهبين؟

- أنت بغيض! مثلك مثل كل الرجال! لكنك أسوأ بكثير.. أنت تخرق تقاليدك الغالية طوال الوقت.. أنت تضع القوانين ثم تخرقها..

- أية قوانين؟ قوانين الحب؟

- تطالبون بعدم قبول فتياتكم مجرد تعارف مع أي رجل قبل الزواج.. ومع ذلك تفرض نفسك عليّ.. هل سمحت لك بهذا أم لا؟!

خفت قوة القبضة الفولاذية لكن العينين الرهيبتين لم تتحركا.

- هل تعرفين ماذا تريدين؟

- أجل.. لا أحب رؤيتك مرة أخرى.. هل تسمع؟

- من الصعب أن لا أسمع..! إلى أين هربت؟

- لم أهرب..! ولماذا أهرب؟

- هذا ما سألته لنفسي.. إذن لماذا كنت تبكين بعد أن وجدت سنيور سكوفيلد مسافراً؟

هزت رأسها: أنا.. لم أكن أبكي.. أنا.. آه.. ماذا يهم؟

- لكنه مهم عندي، أنظري إلي يا ستيوريتا.. هل يمكن أن تكون هذه الدموع لسبب مختلف تماماً؟ قد يظن فيك السوء شخص آخر مع أن هذا الظن السيء لا أساس له أبداً؟

اتسعت عيناها: ماذا تعني؟

- أعني، أمادا..

وتلفظ بلفظة التحبب عن قصد.. يهمني أن أعرف الحقيقة.. وهل يمكن أن يكون هروبك إلى رجل آخر طلباً للعطف لأنك مجروحة؟ وأن ابنة أختي لها الحق في تخمينها لهربك المباشر بعد لقائنا هذا الصباح؟

شدت غريتا يديها معاً لمنعهما من الارتجاف.. وقالت بتلعثم: ابنة

www.rewity.com

أختك مخطئة تماماً يا سنيور..

الثوى فمه: سوء الإدراك لا يخص الجنس الأنثوي وحده ولحسن الحظ كانت ابنة أختي صادقة بما يكفي، لتخبرني عن السبب الحقيقي لغلطتك ليلة الفيستا.. وأشعر بالندم من جراء القلق الذي أحدثته هذه الغلطة، يا سنيوريتا.. أعرف الآن أن حكمي لم يكن خالياً من التجني.. خاصة بالنسبة لك.

تجنبت نظرته: لقد انتهى هذا الآن وأريد أن أنسى.

استندت إلى ظهر المقعد تحاول استعادة تماسكها، تدعو بصمت أن يغلق هذا الموضوع ويقود السيارة رجوعاً إلى ليما.. فهي لن تستطيع سماع المزيد من هذا العذاب.

قال آمراً: انظري إلي أمادا.. هناك شيء أرغب أن أكتشفه.. لذا أرجوك أن تكوني صادقة.

قالت بصوت متخفض: أنا دائماً صادقة.

- إذن، أخبريني.. هل تكرهين اهتمامي بك بقدر ما أردتني أن أصدق؟

شهقت وتلوت لتتخلص من قبضته: ليس من حقك أن تسألني مثل هذا السؤال يا سنيور!

قال ببرود: في هذه اللحظات.. لي كل الحق.. لقد اتهمتني لتوك بكسر قوانين تقاليدنا.. وأريد أن تعرفي يا سنيوريتا أن اتهامك لا أساس له من الصحة كمثل اتهاماتي لك هذا الصباح.

نظرت إليه بذهول.. وارتسمت على شفتيه ابتسامة وواصل: كان من الممكن أن تكون مثل هذه الاهتمامات غير شريفة لو لم أكن أنوي إيصالها إلى نهاية شريفة: وهي أن أطلب منك أن تصبحي زوجتي.

- زوجتك!

بدا الذهول في عينيها الواسعتين وفي انفراجة شفتيها حتى أنه هز

رأسه بإحباط ساخر.

- زوجتي غريبا.. لكن كيف لي أن أكتشف أنك تبادليني المشاعر، إلا إذا قمت بالتقرب الذي تقولين إن رجلاً من جنسيتك يقوم به نحو الفتاة التي يختارها؟ وإلى متى ستستمرين في مقاومتي في كل مرة أجرؤ فيها على محاولة إيقاظ قلبك النائم بعيداً عن الحب الحقيقي، بين رجل وامرأة؟

أصبحت عيناه السوداوان دافئتين الآن. شهقت بدهشة وحاولت أن تنطق.. لكن الكلمات لم تخرج من فمها.. وكان يترقب ردها بلهفة.. هذه المرة وقد أطبقت ذراعاه القويتان عليها شعرت وكأنها في سجن لذيذ..

همس لها بكلمات الحب التي لم تحلم بسماعها منه في أكثر أحلامها جنوناً.. إلى أن قاومت لتتحرر من قيود هذا الحلم المحير، ووضعت يدها على صدره لتدفعه.. وقالت هامسة: أنت.. أنت تحبني؟ أنت.. تسألني أن أتزوجك؟

ابتسم للنجوم التي لم تستطع إبعادها عن عينيها: أحبك.. ونويت أن أجعلك زوجة لي، منذ.. لكنني سأخبرك عن هذا لاحقاً.. تعالي الآن إلى ذراعي.

- لكن.. ظننتك ستتزوج إستريلا.

رفع عيناه بيأس إلى الأعلى: هاه..! دونا إيزابيلا.. أو «ماورسينا» تحدثنا إليك.. لم أفكر أبداً أن أكون الأداة التي توحد غارسيا مع بيلار.

أطرقت برأسها: كنت متأكدة أنك ستختار إحداهما.

رفع ذقنها: وهل أتعستك هذه الفكرة يا حبيبتي؟

هزت رأسها بصمت: أنا.. لم أحلم أبداً.. أنك قد تشعر بهذا نحوي.. أنت.. كنت دائماً..

وصمتت.. لم تستطع الإيضاح بكلمات فقد آلمها غضبه وبروده.

www.rewity.com

- لقد آلمتك بغضبي.. ألا تعرفين أننا دائماً نؤلم من نحب؟ لقد حاربتني دائماً، أو كنت تصرفيني عنك ببرود إنكليزي لا مبالٍ لم يترك لي أي مجال لأعرف بماذا تفكرين.

تحركت متململة: كان هذا دفاعي الوحيد.. لكن كيف وجدتني.. فأنا لم أهرب!

تنهد، وهو يقول هامساً: كان الأمر بسيطاً جداً.. لقد اتصلت ستيورا بيلار بخالتي هذا الصباح عندما اكتشفت رسالة وداع تيريستا.. وفي ذات الوقت، كانت ابنة أختي التي تعتقدين أنها مظلومة تماماً، توبخني بقسوة على خشونتي معك.. وجرى شجار بيننا يحطم الأعصاب، برغم أن هذا شيء طبيعي ستعتادين عليه في النهاية.. لقد رآك أحد الخدم وأنت تخرجين من السيارة.. وعلى الفور أول فكرة خطرت لي هي هروبك، فاتصلت على الفور بالمطار أطلب تأخيرك حتى أصل.. ثم ذكرتني كارلوتا أنك قد لا تعرفين بأمر كايل وتيريستا.. لبعض الوقت، اعتقدت بأنك معجبة بكايل، لذا فكرت أنك ذهبت إليه لتحظي بعطفه.. هكذا.. أنا هنا، أمر بسيط!

ثم اكتئبت، عاد إليها شبح الذكرى: الأمر صحيح جزئياً.. لقد أردت الهرب.. أنا.. لم أكن أعرف كيف كنت.. كيف.. أنا..

حثها على الاسترسال على الفور ولمع في عينيه بريق شيطاني: نعم؟

كان اللون الوردي ينتشر فيها تحت نظرته المحبة: أنت تعرف تماماً.. الآن..

- لا تخجلي من احمرارك. أجده لذيذاً، وأظن أنه أول الأشياء التي جعلتني أقع في حبك.. منذ اللحظة الأولى لخروجك إلى شرفتك حين رفعت وجهك إلى الشمس. كنت كزهرة تفتحت براعمها تواً وبفوح من حولك لون ورقها الزهري.. أردت أن أصل إليك وأضمك.. وأمنع أي

رجل أن يقترب منك أو يلمس جمالك.. ثم بعد أن استعدت سيطرتي على مشاعري وحاولت تحذيرك.. احمر وجهك بشكل رائع.

قالت بجنون: لكن هذا كان بسبب العينين.. في تلك اللوحة.. لوحة جدك الأكبر.. وقد شعرت بغبائي لأنني قلت إنك تشبهه.. و..

صمتت فهز الكونت رأسه بضيق: أنت تتحدثين كثيراً كنساء الاسبان..

أخذها في حضنه فشعرت بالعجز والضعف بين ذراعيه.. وهمست: يا ستيور كونت! أنت لا تمنحني الفرصة للحديث.

قلدها ساخراً: يا ستيور كونت! ألم تعرفي اسمي بعد؟

لامست خطوط وجهه بأصابعها: رامون.. أم مونتي؟

- تمنيت كثيراً أن يناديني من أحبهم باسم مونتي.. لكنني لم أعد الآن واثقاً.. أحب أن أسمع لسانك الإنكليزي الصغير يتلعثم وهو ينطق باسم رامون.. لذا ستناديني رامون.

وحاول تقليد لهجتها في نطق الاسم وانفجرا في الضحك.

عانقها مجدداً.. بعد وقت طويل، تحركت بين ذراعيه تحس أن هناك شائبة ما تشوب هذه السعادة الوليدة حديثاً.

همست: مونتي.. ماذا عن كارلوتا؟ علينا أن نفعل شيئاً من أجلها.. لأنها تشعر بالبؤس والتعاسة.

تنهد: لا زلت تشكين أنني طاغية مستبد، أليس كذلك؟ اسمعي.. هناك شيء أقوله لك.. لكن ينبغي أن يظل سراً بيننا وكأننا أصبحنا زوجين مخلصين.

أراحها على ذراعه، وهو يروي لها خططه بشأن ميغيل: تعرفين أن كارلوتا وريثة.. وأن ميغيل مفلس على الرغم من أنه ينتمي لعائلة مرموقة.. ويجب أن تعرفي كذلك أن أي رجل شريف لا يقبل على نفسه أن يوصف بأنه يسعى وراء الثروة. على أي حال الأمور ليست قاتمة كما

www.liilas.com

تبدو.. وهناك أحد أقرباء والدة ميغيل صنع نفسه بنفسه لذلك فهو رجل عصامي.. ويملك أحد أكبر مزارع العنب في البلاد، وليس له قريب مباشر ليرثه.. وهناك إمكانية كبرى في أن يختار ميغيل لو أثبت أنه قادر على إدارة المزرعة دون تبديد ثروتها.. وقد أبلغني منذ أسابيع فقط عن نواياه، وسعى إلى رأيي حول شخصية ميغيل وأخلاقه.. ومن الطبيعي أن تكون رغبته أن لا يعرف ميغيل شيئاً حتى اللحظة المناسبة.. هكذا رتبت أمر استلام ميغيل لمركزه وأن يعرف ما يلزمه حتى يكون قادرا على تحمل المسؤولية.

سألت بلهفة: إذا سار كل شيء على ما يرام.. أتتركهما يتزوجان؟

- سأفكر بالأمر.. لكن حتى هذا الوقت يجب أن تكمل كارلوتا تعليمها وتتعلم أن تعرف ما في قلبها.

- وهل تظن أنها قد تغير رأيها في ميغيل عندما تفترق عنه؟ سيبدو لها هذا الوقت طويلاً كأنه الدهر.

- ليس تماماً.. أخبريني يا أماداميا.. لو أن كارلوتا عزيزة عليك، لنقل كأخت لك.. هل ستسمحين لها بأن تطيع كالعمياء أول حركة عذرية لقلبها؟ أظنك ستكونين حذرة.

- هذا صحيح.. لولا أنني منقسمة بين وجهتي نظر.

- أظن أنك تشعرين بالقلق على أشهر الانتظار والشوق التي ستمر بها كارلوتا يا صاحبة القلب الحنون.

شعرت بقشعريرة السعادة لسماعها كلمات التحبب من شفتيه ولها وحدها.. وابتسمت لعينيه، تهز رأسها: لا أستطيع إلا أن أتصور سنة من الحيرة وأظن أنني سأتوقف عن الإحساس بوجودي خلال تلك السنة.

رجع إلى عجرفته القديمة ثم قال: لا شيء يمنعك من الزواج مني. ستكونين تحت سيطرتي للأبد.

نظرت إليه بعينين متسعتين، غير واثقة ما إذا كان جاداً.. وظنت

أنها رأت المرح الساخر في عينيه: يا رامون.. حسب تفكيرنا.. الزواج هو مشاركة رائعة.. كل فريق يعطي ويأخذ ويحترم ويحب ويشارك..

قاطعها بحنان: ويتخلى عن الآخرين.

هزت رأسها فتفرس فيها لحظات وحبه لها يطل من عينيه.. ثم ابتسم الدكتور بوم كنت تتنزهين مع كابل الطيب.. ورأينا الصبي لهندي والعناية بحيوانه؟

- أجل.. اتعني وميض المرآة؟

- لا.. أعني سرقته لقبعتها.. هل تذكرين أنك فقدت شيئاً يا أماداً؟

- لا.. وبالتأكيد ليس قبعة.. لماذا؟

مد يده خلفها وفتح الخزانة الصغيرة داخل السيارة.. وتمتم بتفاد صبر ثم وجد الشيء الذي كان يسعى إليه، وأبرز منديل الرأس الذي أضاعته يوم الكوربدا.

- هذا لي! هكذا فقدته إذن؟

حاولت أن تأخذه لكنه أبعده عنها.

- لقد قررت ساعتئذٍ أن تكوني لي.

تراقصت عيناها: لكنني لك الآن.. على أي حال لن أخاطر بمعركة لاستعادة ما أملك ممن أملك.

قطب الغازي المتعجرف.. وفاجأها بعد ذلك بوضع المنديل فوق رأسها بوقار.

- على أي حال.. لا أظن أنني مضطر للاعتماد على وسيلة سحر خرافية.

توالت ضحكتها الهادئة لكنها اختفت تحت عناقه، وأفلت المنديل من فوق شعرها فالتقطته يدها قبل الاستسلام لعناقه.. فربما كان سحراً على أي حال.

تمت